

١

سلسلة رؤى معاصرة

الرؤى المعاصرة وتحديات المستقبل

السنة الأولى - العدد رقم ١ - ذو الحجة ١٤٢٧هـ - يناير ٢٠٠٧م



[١]

سلسلة رؤى معاصرة

الرؤى المعاصرة وتحديات المستقبل

وحدة الأبحاث والدراسات
المركز العربي للدراسات الإنسانية

ح مجلة البيان ، ١٤٢٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

وحدة الأبحاث والدراسات المركز العربي للدراسات الإنسانية
الرؤى المعاصرة وتحديات المستقبل/ وحد الأبحاث والدراسات
المركز العربي للدراسات الإنسانية. الرياض، ١٤٢٩هـ

ص ٤٢؛ ١٦,٧×٢٣,٥ سم

ردمك: ١ - ٠ - ٩٠٠١٢ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ـ الإسلام والحضارة ٢ ـ العالم الإسلامي - تاريخ - العصر
الحديث ٣ - الأمة الإسلامية أ. العنوان

ديوي ٢١٠,٦٥ ١٤٢٩/١٥٤٦

رقم الإيداع: ١٤٢٩/١٥٤٦

ردمك: ١ - ٠ - ٩٠٠١٢ - ٦٠٣ - ٩٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص الدراسة

تحتاج الأمة الإسلامية إلى جهد فكري معاصر يتناسب وحجم التحديات الخارجية والداخلية، فقد باتت الرؤى الفكرية الرشيدة ضرورةً لإحداث نقلة حقيقية لدى صُنّاع القرار الإسلامي؛ بما يساهم في استعادة نهضة الأمة ووضعها على طريق الخير والنجاة.

يتناول البحث واقع الأمة في مجال الأفكار، والمعركة الدائرة حول السيطرة على العقول، والتي تُعَدّ من أخطر المعارك التي يخوضها المسلمون، بالتوازي مع الغزو العسكري الغربي على العالم الإسلامي. يوضح البحث أهمية الأفكار لصانع القرار المسلم، ويركز على التجارب الهامة من تاريخنا حول تأثير الفكر في العمل الإسلامي، وكيف أن الحكم الإسلامي في العصور الراشدة كان يهتم بالأفكار لبناء الدولة، وفي ترسيخ العقيدة لمواجهة التحديات.

كما يشير البحث إلى الأسباب التي أدت إلى ضعف الأمة وانكسارها، وخضوعها للقوى الخارجية بعد أن حَكَمَ المسلمون العالم، وكانوا سادة الأمم.

يؤكد البحث أن صُنّاع القرار الإسلامي بحاجة إلى تطور ملموس في ساحة الأفكار، وأن هذه القفزة أصبحت ملحة ولم يعد من المقبول تأجيلُها، وهي تمثل بداية لاستعادة زمام القيادة ولتحرير أرض الإسلام. يرى البحث أن الانتصار في حرب الأفكار ليس بالأمر السهل؛ فالعدو يعمل ـ بجانب السيطرة العسكرية ـ على التأثير على عقول صُنّاع القرار والنُّخَب، إما بالهيمنة عليها، أو بإقصائها وحجبها عن التأثير.

يؤكد البحث على أهمية الأفكار في عالم اليوم، ويوصي بضرورة إنشاء مراكز فكرية إسلامية أصيلة لتقديم دراسات وبحوث فكرية معاصرة؛ لترشيد عملية اتخاذ القرار الإسلامي، ولتحقيق نهضة الأمة، والانطلاق بها نحو الريادة.

يخلُص البحث إلى أن تحرير العقول يسبق تحرير الأرض، ولن يتم تحرير الأرض قبل تحرير العقول، وأن الرؤى الفكرية المعاصرة القائمة على الثوابت الإسلامية باتت ضرورة لتحرير العقل المسلم، وتوجيهه لمواكبة ما يجري، وتنمية قدراته لمواجهة التحديات.

رئيس التحرير

د. باسم خفاجي

b.khafagy@arab-center.org

مدير التحرير

عامر عبد المنعم

aamermoneim@arab-center.org

المركز العربي للدراسات الإنسانية

القاهرة ١٢ شارع رفاعة متفرع من

الخليفة المأمون - مصر الجديدة

www.arab-center.org

mail: info@arab-center.org

هاتف: ٢٤٥٣٥٤٢٢ ٢٠٢+

فاكس: ٢٤٥٢٢٨٠١ ٢٠٢+

نقال: ٠١٠٥١٢٥٩٥٦ ٢+

رؤى معاصرة:

دورية استراتيجية تهتم بتقديم رؤى استشرافية وفكرية لصناع القرار والمفكرين والمثقفين في العالم الإسلامي. يتركز اهتمام «رؤى معاصرة» على التحديات الفكرية والاستراتيجية والسياسية التي تواجه الأمة الإسلامية سواء على المستوى الداخلي، أو في علاقات الأمة مع الدول والشعوب غير المسلمة، أو على مستوى الرؤى الفكرية والحضارية الخاصة بمستقبل العالم الإسلامي.

مجالات الاهتمام:

تهتم «رؤى معاصرة» بخدمة صانع القرار في العالم العربي والإسلامي من خلال الجوانب التالية:

- تقديم دراسات تحليلية لقضايا واقعية ملحة تشغل اهتمام صانع القرار في العالم العربي والإسلامي.
- عرض حلول عملية لمشكلات معاصرة في مجالات الفكر والاستراتيجية والسياسة.
- تعريف بقضايا أو مشكلات جديدة على ساحة العمل الإسلامي.
- طرح رؤى جديدة متميزة وعملية حول بعض المشكلات والقضايا.

الموزعون:

مصر: المركز العربي للدراسات الإنسانية، القاهرة: ١٢ شارع رفاعة، الخليفة المأمون — مصر الجديدة — هاتف: ٢٤٥٣٥٤٢٢ فاكس: ٢٤٥٢٢٨٠١ الإمارات العربية المتحدة: شركة الإمارات للطباعة والنشر، دبي ص.ب ٦٠٤٩٩، هاتف: ٣٩١٦٥٠١، فاكس ٢٦٦٦١٢٦. سلطنة عمان: مؤسسة العطاء للتوزيع، ص.ب ٤٧٣ — العلية ١٣٠ — هاتف: ٢٤٤٩١٣٩٩ - فاكس: ٢٤٤٩٣٢٠٠. البحرين: مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف — المنامة: ص.ب ٢٢٤ هاتف ٥٣٤٥٥٩ - ٥٣٤٥٦١، فاكس ٥٣١٢٨١. السعودية: الشركة الوطنية للتوزيع: هاتف: ٤٨٧١٤١٤ - فاكس: ٤٨٧١٤٦٠. السودان: الخرطوم، دار الريان للثقافة والنشر والتوزيع، هاتف: ٧٩٣٢٨٣ — فاكس: ٧٩٣٢٨٤ — ص.ب ١١١٦٦ الخرطوم. الأردن: الشركة الأردنية للتوزيع، عمان ص.ب ٣٧٥ هاتف: ٥٣٥٨٨٥٥، فاكس: ٥٣٣٧٧٣٣. قطر: دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع، الدوحة هاتف: ٤٥٥٧٨١٠ — ٤٥٥٧٨١١ — ٤٥٥٧٨١٢ — فاكس: ٤٥٥٧٨١٩. الكويت: شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع: ص.ب: ٢٩١٢٦ — الكويت رمز بريدي ١٣١٥٠ - هاتف ٢٤٠٥٣٢١ — ٢٤١٧٨١٠ - فاكس: ٢٤٧٨٠٩. المغرب: سوشبرس للتوزيع، الدار البيضاء، ش جمال بن أحمد ص.ب ١٣٦٨٣ — هاتف ٤٠٠٢٢٣ - فاكس: ٢٤٦٢٤٩. اليمن: دار القدس للنشر والتوزيع، صنعاء: ص.ب: ١١٧٧٦ الطريق الدائري الغربي أمام الجامعة القديمة، هاتف: ٢٠٦٤٦٧ - فاكس: ٤٠٥١٣٥.

رقم الإيداع: ١٤٢٩/١٥٤٦

ردمك: ١-٠٠-١٢-٩٠٠١٢-٦٠٣-٩٧٨

مقدمة:

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه، وعلى آله وصحبه، وسلم تسليمًا كثيرًا. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠].

أما بعد:

فإن المتأمل في واقع الأمة الإسلامية في العصور المتأخرة يتألم لما آلت إليه الحال، بعد أن كنا السادة والقادة، وحماة البيضة والدار ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. وقد يرى البعض أننا أصبحنا عالة على أعدائنا، وهمًّا على أمتنا، وأنه قد أدرك أعداؤنا سر تأخرنا، ومكمن مصيبتنا، وأساس بليتنا، فعاثوا في الأرض فسادًا، يتآمرون ويخططون، ونحن في غفلة عما يُكاد لنا، انشغلنا بأنفسنا عن عدونا، وبدنيانا عن ديننا.

ولكن لا يجب أن نُحمّل أعداءنا كل مصائبنا ومآسينا ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]. فمِنا الداء وعندنا الدواء بإذن الله، و**«ما أنزل الله من داء إلا وأنزل له دواء، علمه من علمه وجهله من جهله»**.[1]

ما أحوج الأمة اليوم إلى تغيير هذا الواقع ووقف الانهيار، والسعي لإعادة العالم الإسلامي إلى مكانته الرائدة. هذه العودة تحتاج إلى فكر متجدد وفهم للواقع ودراية بما يدور حولنا. ومما هو مقرر في قواعد الشريعة أن (ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب) و(الحكم على الشيء فرع عن تصوره)، ولذا فعلى من يتصدى للحكم على الواقع، والخوض في غماره، أن يكون ملمًّا بهذا الواقع، مدركًا لأسراره، عالمًا بأصوله وفروعه، وإن لم يتخصص فيه فعليه بالرجوع إلى من يجيدون ذلك، انطلاقًا من التوجيه الرباني ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾[الأنبياء: ٧].

إن فقه الواقع من علوم الشريعة التي يبنى بعضها على بعض، وهو علم يبحث في فقه الأحوال المعاصرة، من العوامل المؤثرة في المجتمعات، والقوى المهيمنة على الدول، والأفكار الموجَّهة لزعزعة العقيدة، والسبل المشروعة لحماية الأمة ورقيها في الحاضر والمستقبل.[٢]

وما نؤكد على حاجته اليوم ليس علمًا جديدًا؛ لأن أساسه في القرآن، والسنة، وكلام سلف الأمة. ففي سورة الأنعام يقول ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥]، ومن فقه الواقع استبانة سبيل المجرمين، ومعرفة أهدافهم ومخططاتهم.

لهذا جاءت كثير من الآيات مفصلة ومبينة سبيل أعداء الله، وفاضحة لمآربهم وغاياتهم، ولنأخذ سورة واحدة تؤكد لنا هذه الحقيقة وتُجَلِّيها: إنها سورة التوبة، ومن أسمائها (الفاضحة)؛ لأنها فضحت المنافقين، وكشفت عن خداعهم وتضليلهم ومؤامراتهم، يقول ـ سبحانه وتعالى ـ في كتابه الكريم: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩] ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾[التوبة: ٥٦] ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾[التوبة: ٦٢]. ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة: ٦٧].

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[التوبة: ١٠٧]، وهذه الآية من أعظم الآيات التي فضحت المنافقين، وكشفت دسائسهم، واستغلالهم لهذا الدين بإقامة المساجد تلبيسًا وخداعًا، وسترًا لمؤامراتهم. ونجد في ختام هذه السورة: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧].

ونجد كذلك في سورة البقرة، والأحزاب، والمنافقون ما يكشف عن المنافقين وغاياتهم. أما اليهود والنصارى والمشركون فالآيات التي تكشف عن واقعهم كثيرة جدًّا، وهي من صميم فقه الواقع الذي يبينه الله -جل وعلا- لنبيه وللمؤمنين، ولنأخذ بعض الآيات في ذلك قال سبحانه: ﴿وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٦] ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]. ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ١٤٦].

وهذه الآيات تكشف واقع اليهود، وفساد طويتهم، ونجد في النصارى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المائدة: ١٤].

وعن المشركين يقول سبحانه وتعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ١٩]. وقال قبلها: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٧].

ونجد في بيان علاقة المنافقين بأهل الكتاب: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾[الحشر: ١١]. والآيات في هذا الباب كثيرة جدًّا.

إن مـن يقرأ القرآن يجـد الكثير من الآيات التي تُبَصِّر المسـلم بواقعه وتدعوه إلى اتخاذ المواقف الصحيحة المؤسسة على الثوابت الشرعية.

فالقرآن الكريم هو المصدر الذي يسـتقي المسـلمون منه سـبل عزهم، وظل سـلطان المسـلمين قويًّا في معظم الأزمان؛ لارتباط الحكم بكتاب الله وأداء جميع شعائر الإسلام وعلى رأسـها فريضة الجهاد. ولقد حدث الضعف ثم الانهيار مع التراخي في الالتزام بتلك الشـعائر ومنها جميع شعائر الإسـلام وعلى رأسـها الجهاد والابتعاد عن الكتاب. فالقرآن الكريـم هو أعظم مصدر لاسـتلهام الأفكار، فعجائبه لا تنقطع، بـه خبر من قبلنا ونبأ من بعدنا. وقد أحدث القرآن تغييرًا كبيرًا في الكون لصالح البشـرية، أخرج الناس من ظلمات الجاهليـة إلى نور الإيمان بالله. لقد حوَّل القرآن العـرب من بدو ورعاة إلى عاملين جادين من أجل نشر الخير والفضيلة وإقرار الحق في كل أرجاء العالم.

وكان أفضـل من تعلم القـرآن وعلَّمه هو النبي محمد صلى الله عليه وسـلم، كان قرآنًا يمشـي. فقد ترجم القرآن إلى خطوات ملموسـة على الأرض. وتحفل سيرة النبي محمد - صلى الله عليه وسـلم - بكنوز من المعارف والأفكار، ومن يتابع السـيرة النبوية منذ نزول الوحـي يعي أهمية العقل البشـري، والأخذ بالأسـباب في التحولات الكبـرى في تاريخ الإسلام.

فها نحن نراه صلى الله عليه وسلم يوجِّه المستضعفين من صحابته بالهجرة إلى الحبشة، وهـذا برهان سـاطع على معرفتـه صلى الله عليه وسـلم بما يدور حولـه، وأحوال الأمم المعاصـرة له.[٣] فلماذا لم يرسـل الصحابـة إلى فارس أو الروم أو غيرهـم؟ ولماذا اختار الحبشـة؟ يبين ذلك صلى الله عليه وسلم بقوله: «**إن بأرض الحبشة مَلِكًا لا يُظلم أحد عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجًا ومخرجًا مما أنتم فيه**».[٤]

وها نحن نـرى المرحلية في الدعوة ملائمة للواقع الذي تعيشـه، ونجده صلى الله عليه وسـلم يختار المدينة مكانًا لهجرته، ويتعامل مع جميع الأطـراف الموجودة فيها وحولها بأسـلوب يناسـب أحوالها. وعندما أرسـل صلى الله عليه وسـلم معاذًا إلى اليمن قال له:

«إنــك تأتــي قومًا أهل كتاب.. »(٥)، وهذا من إلمامه صلى الله عليه وسـلم بواقع كل بلد ومـا يحتاج إليه؛ ولذلك قال له: **«.. فليكـن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا الله، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا فعلوا، فأخبرهـم أن الله فرض عليهم زكاة من أموالهم، وتـرد على فقرائهم، فإذا أطاعوا بها، فخذ منهم، وتَوَقَّ كرائم أموال الناس».**(٦)

وكذلـك نلمـس عمـق هـذا العلـم فـي غزواتـه، ورسـائله إلـى الأمـم والملـوك والقبائـل. ويبـرز هذا الجانـب كذلك فـي اسـتقباله للوفـود، وتعامله معهـم، وإنزاله للناس منازلهم، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُـولِ اللَّهِ أُسْـوَةٌ حَسَـنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

أولاً: الواقع الفكري للعالم الإسلامي:

تعيـش الأمـة الإسـلامية حالـة مـن التفـكك والانقسـام أمـام هجمـات لا تتوقـف مـن خصومهـا، وغابـت المناعـة فاسـتمر الاسـتنزاف منـذ غيـاب الدولـة الإسـلامية التـي كانـت تحمي المسـلمين مـن أعدائهـم، ولم تعـد الأمة قـادرة على لَمّ شتاتها.

واقع اليوم يؤكد ما ذكره الرسـول ـ صلى الله عليه وسـلم ـ: **«يوشـك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، قالوا: قلنا يا رسـول الله أمن قلة نحن يومئـذ؟ قال: أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السـيل»**(٧)، فالأمة كالقصعة يتكالب عليها الأعداء، ينهشـون الجسد الإسلامي بكل قسوة، ولم تتوقف عمليات القتل وإهدار دماء المسلمين منذ قرنين من الزمان؛ إذ تتواصل المذابح، ويتصاعد دخان القنابل، وقصف الصواريخ فوق المدن الإسلامية، الواحدة تلو الأخرى.

وأخطر ما يعانيه العالم الإسلامي اليوم هو العجز عن تشخيص المرض الذي أنهك قواه. فالأمة لديها من الإمكانات المادية ما يؤهلها لتأدية الدور المنوط بها في العالم، ولديها من

أسـباب القوة ما يكفي لتتبوأ مكانتها اللائقة، فهي أمة تمثل أكثر من خُمْس سكان العالم، ويوجد بأرض المسلمين الثروات الكافية لحياة وكفاية سكان الكوكب.

تبدو الأمة الإسـلامية ككيان ضخم ولكن رأسـه وقيادته لا تتناسبان في هذه المرحلة مع طموحات شـعوبه وآمالهم وقدراتهم أيضًا. يحاول خصـوم الأمة في نفس الوقت ألا تعي الأمة هذه المعضلة ويحاولون استبدال قيادة الأمة الراشدة بقيادات لا تفكر في صالح الأمة بقدر ما تعمل على إنهاكها وإضعافها.

لقد كانت الدولة الإسـلامية التي أقامها الرسـول ـ صلى الله عليه وسـلم ـ هي الحامية لمصالح المسـلمين، ومن جاءوا بعده أكملوا المسـيرة، رغم ما حـدث من تعثر لفترات. كانت حدود الأمة مؤمنة، وكان الجهاد درعًا حاميًا ورادعًا لكل من تسـوِّل له نفسه التفكير في التعدي على الحدود. عاش المسـلمون قرونًـا طويلة، وهم يعمرون الكون، ويقودون العالم إلى أن دَبَّ السوس في قلب العالم الإسلامي؛ فانتهز الخصوم الفرصة لينقضوا على هذا الجسد الضعيف يحاولون تمزيقه، وينفثون عن مكنون غريزة الصراع، ويشبع البعض منهم أيضًا شهوة التشفي في الآخر.

لم يكن التفوق الإسـلامي في فترات الازدهار راجعًا إلى التفوق العسـكري للمسلمين، وإن كان هـذا عاملاً أساسـيًّا، وإنمـا كان يرجع في المقـام الأول إلى الالتـزام الحقيقي والصادق بشـريعة الإسلام من ناحية، والعمل على كسـب العقول والقلوب إلى الإسلام من ناحية أخرى. إن الفتوحات كانت تفتح الباب أمام الشعوب للتعرف على الإسلام. وكان المسـلمون يخسـرون بعض المعارك، ولكن هذه الهزائم لم تُوقف المد الإسـلامي، فقد كانوا دائمًا يكسـبون معركة الأفكار ويعيدون صياغة عقول وقلوب الشـعوب التي اعتنقت الدين، ولم ترتد عنه؛ حتى في فترات ضعف الحكم الإسـلامي. كان المسلمون يواجهون في معظم تلك المعارك أعداء أكثر منهم عدة وعتادًا. وقد انتصر المسـلمون في معظم تلك المعارك بسـبب العقيدة الإسلامية التي حولَّت المسـلم إلى إنسان يسمو بتلك العقيدة عن الموبقات والرذائل، متفوقًا بفضائله وأخلاقه بشكل لا نظير له.

لقد شـكّلت هذه العقيدة نموذجًا فريدًا يمتلك إرادة صلبة. فهذه العقيدة التي هيمنت على وجدان المسلم قد حولت أفراد الأمة الإسلامية إلى طاقات متدفقة، تتجاوز كل التحديات، وتتخطـى كل العوائق. فهذه العقيدة فتحت المجال في سـاحات الإبداع وحسـن توظيف الطاقة البشـرية لخدمة الرسالة الإسلامية من ناحية، والبشرية جمعاء من ناحية أخرى. كان المسلمون الأوائل يُعْمِلُونَ قوة الفكرة في إذابة الحديد ذي البأس الشديد، فانطلقوا ينشرون الدين في كل العالم.

نظرة إلى تاريخ الأمة:

إن الفرق بين مسـلمي اليوم وسـلفهم مـن خير القرون أنّ الأوائـل كان توجههم واضحًا وفطرتهم نقية، ولم يسـلموا قيادهم لمناهج وأفكار وافدة. نهاهم الرسـول ـ صلى الله عليه وسـلم ـ عن مطالعـة صحائف أهل الكتاب، «أتى عمرُ بن الخطـاب النبيَّ -صلى الله علَيه وسـلم- بكتاب أصابه من بعض أهل الكتب فقرأه، فغضب النبي -صلى الله عليه وسـلم- فقـال: **أَمُتَهَوِّكُون فيها يا ابن الخطاب، والذي نفسـي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذّبوا به أو بباطل فتصدّقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسـى صلى الله عليه وسـلم كان حيًّا ما وسـعه إلا أن يتبعني»**[8]، كما أنه نهاهم عن تدوين السنة في الفترة الأولى من نزول الوحي؛ حتى لا يحدث أي تشويش على القرآن كمصدر ومنهاج. من العجائب أن المسلمين الذين فتحوا الدنيا كان لديهم كتاب واحد فقط، وهو القرآن الكريم، وبهذا الكتاب الكريم دان لهم الشرق والغرب.

كانت عقولهم صافية على الفطرة، لم تتلوث بالغثّ من الأفكار الفاسدة. تميزت الأفكار في العالم الإسـلامي بالبسـاطة والوضوح، فلم تزدحم العقول بأفكار متضاربة ومتصادمة من هنا وهناك.

وحتى عندما بدأ العلماء في نسخ الكتب وإنشاء المكتبات ظل أكثر إنتاج العقول المسلمة نقيًـا، وحتى عندما بـدأت عمليات الترجمة مـن الثقافات الأخـرى؛ حافظت الأمة على

قدرتها على التمييز بين المفيد من علوم وآداب الآخرين وبين غير المفيد. ولكن مع الوقت أصاب الأمةَ الوهن والتكالب على الدنيا، وبدأت الأفكار الوافدة تتسرب إلى المجتمعات المسلمة، وتتسلل إلى العقول، وأدى ذلك إلى تشوش الصفاء الفكري الإسلامي. لكن رغم هذا التسلل كان علماء الإسلام أصحاب الريادة دائمًا، وحافظوا على مسيرة العقل المسلم ناصعة ما أمكن ونقَّحوا الفكر الإسلامي بشكل مستمر ودائم مما علق به من الأفكار الدخيلة، وواجهوا كل الانحرافات الفكرية بقوة الحجة والبرهان.

ونظرًا للتقدير والاحترام الذي كان يلاقيه الفقهاء والعلماء في ظل الحكم الإسلامي فقد كانت منابر التأثير صعبة على الاختراق، ولم يتسلل إليها الدخلاء، ولم تجد الأفكار الدخيلة لها سوقًا رائجة. ولكن مع الوقت ومع الضعف الذي بدأ يدب في رأس الحكم واختراق الجسد الإسلامي ضعفت المناعة الإسلامية، ووجدت الأفكار المريضة والهدامة طريقها إلى الشعوب والنخب على حد سواء.

وتفاقمت محنة الأمة مع التراجع السياسي والعسكري، وغياب الحكم الإسلامي الراشد، واجتياح الاستعمار الغربي للعالم الإسلامي. لقد عمل الاستعمار على السيطرة على مراكز التأثير والمنابر الإعلامية، وسعى إلى الهيمنة على مصادر التوجيه الفكري والثقافي، وعمل كذلك على صناعة نخب محلية مناوئة للأمة ومعادية لعقيدتها. ورغم حالة الضعف التي تعيشها الأمة وإخفاقها في ردع العدوان العسكري عليها؛ فإن المعركة على الساحة الفكرية قد اتخذت شكلاً مختلفًا؛ فقد فشلت معظم محاولات الغرب لإعلان هزيمة الأمة في هذه المعركة الفكرية.

لم يترك خصوم الأمة أي وسيلة لمحاربتها، وطرقوا كل الأبواب للإجهاز على الإسلام في معركة الأفكار. كان الفشل حليفهم، ولم تسعفهم عقولهم في تحقيق إنجازات موازية للإنجازات العسكرية. بل على العكس من ذلك، يحقق الإسلام تفوقًا بفضل الله أولاً، ثم بسبب اتساق العقيدة الإسلامية مع العقل، ويقبل على اعتناقه نسبة متزايدة من قيادات سياسية وفكرية من داخل الغرب الذي أعلن معاداة الإسلام منذ البعثة وحتى الآن.

علاقة العقائد والأفكار بالتقدم الحضاري:

لقد أثبتت التجارب الحضارية المختلفة عبر التاريخ أن قوة الفكرة واتساقها مع الفطرة والعقل هي التي تجعل تلك الفكرة قادرة على الصمود أمام التحديات، ثم الانتصار وتجاوز كل العوائق أمامها.

وبسبب تأثير الأفكار؛ فإن الساحة العالمية تشهد مؤخرًا تنافسًا حادًّا للسيطرة على العقول في إطار التنافس بين الحضارات، وحالة المواجهة التي احتدت في العالم بين أتباع الرسالات السماوية والعقائد والمذاهب المختلفة.

لا شك أن الحضارة التي تنتصر في معركة الأفكار تضمن البقاء والاستمرار فترات طويلة من الزمن إلى أن تتفوق عليها حضارة أخرى في ذات المعركة. إن القوة العسكرية تستطيع أن تحقق انتصارًا مؤقتًا لحضارةٍ ما، ولكن لا تضمن لها الاستمرار ما لم تكن تلك الحضارة قائمة على عقيدة أو منظومة قيم وأفكار وثقافة متماسكة. فالشيوعية مثلاً لم تنجح في البقاء أكثر من قرن من الزمان؛ لأنها تصادمت مع الفطرة الإنسانية ورغبة التملك لدى الإنسان. وانهار الاتحاد السوفييتي رغم كل ما كان لديه من ترسانة عسكرية وأسلحة متفوقة.

تكرر الأمر نفسه مع النازية التي قامت على تفوق العرق والتمييز بين البشر، فلم يستطع هتلر بكل ما يملك من قوة عسكرية الاستمرار. وكذلك سقطت الفكرة الفاشية ولم يكتب لها النجاح. والتاريخ مليء بالوقائع التي تؤكد أن السيطرة على الأرض بالقوة العسكرية وحدها لا يؤدي بالضرورة إلى امتلاك العقول، أو قدرة الحضارة على الحفاظ على استمراريتها. وإذا كانت حضارة ما زائفة من الناحية الفكرية، فإنها سرعان ما تنهار لصالح حضارة أخرى.

وأبلغ مثال على هذا الأمر هو ما حدث مع الاستعمار الغربي لباقي العالم، فلم توفر القوة العسكرية الأمن للمستعمرين ليبقوا أبد الدهر، وقد اضطر المستعمرون إلى الانسحاب من معظم العالم وترك البلاد إلى أصحابها الأصليين. والمثال الوحيد لبقاء المحتل الأجنبي

واســتقراره في أرض محتلة ناتج عن إبادة الســكان الأصليين والقضاء عليهم بالقتل، كما حدث في أمريكا الشمالية وأستراليا.

إن التفوق العســكري للغرب أمام ضعف المســلمين عســكريًّا لا يؤهل الغرب لكســب المعركة على ســاحة العقول والأفكار؛ بسبب ضعف الغرب كحضارة وكثقافة أمام تفوق العقيدة الإســلامية وحضارة المسلمين. قد يملك الغرب أدوات تقنية متفوقة لكن المحتوى الحضاري للغرب يُفْقِد هذه الأدوات تأثيرها، حتى وإن بدا للبعض تميزها. في المقابل فإن المحتوى العقائدي والحضاري للمسلمين، رغم تراجعهم العسكري وفي ساحة التحديث والتقدم العلمي، يثبت أنه ينتشر بقوة حتى في ساحة الغرب، رغم أن الكثيرين من خصوم الأمة هم من أبناء الكيان الغربي ذاته.

لماذا تعاني الأمة حضاريًّا؟

إن التفوق الفكري رغم أهميته لا يعني الرضا بحالة التراجع التي تعيشها الأمة، ولا يعني الاكتفاء بقوة الدفع الذاتي للإســلام كدين وعد الله -تعالى- بحفظه. إن للمســلمين عقيدة وفكرًا متفوقًا، لكن ســنوات الانكســار والانهزام ألقت بطبقات من الظلال القاتمة على ما نملكه من جواهر مكنونة، وأعمت البعض عن الاعتزاز بما نملكه من قوة، وضللت آخرين وأبعدتهم عن الرؤية بعيون مفتوحة حقاً. إن ما تعاني منه الأمة من تراجع وانكســار إنما هو نتيجــة عوامل متعــددة اجتمعت منذ أكثر مــن قرنين من الزمان، وليســت وليدة اللحظة، ويمكن الإشارة إلى أبرز هذه العوامل كالتالي:

١- حالة الانكسار التي تعيشها الأمة منذ انهيار الخلافة، وتقسيم العالم الإسلامي وغياب القيادة الإسلامية التي تقود الأمة وتواجه التحديات في شتى المجالات. هذا الغياب القيادي أفقد الأمة قدرتها على توظيف عوامل قوتها، والتصدي لما أضعفها وبدَّد طاقاتها، وأنهك مناعتها، والخســارة التي ترتبت على غياب النضوج القيادي الإسلامي للأمة لم تكن فقط في المجال العسكري، ولكنها فتحت الباب أمام الخصوم للعمل في ساحة الأفكار، وهذا هو الأخطر على المدى الطويل.

٢- تقدم الغرب المادي في مواجهة تراجع العالم الإسلامي أعطى الفرصة لخصوم الأمة للتشكيك في حضارتها، وأعطى مبررات للمنهزمين بالدعوة إلى تقليد الغرب من باب «ولع المغلوب بتقليد الغالب»، دون النظر إلى أن هذا التقدم التقني والعلمي قام على الاستيلاء على ثروات الشعوب وليس فقط لتفوق الفكر الغربي، أو لأن الغرب لديه منظومة مثالية من القيم والأفكار.

٣- سيطرة الخصوم على وسائل التأثير والمنابر الإعلامية في العالم وفي البلدان الإسلامية أدى إلى ثلاث نتائج: الأولى: تحجيم تأثير علماء الأمة ومفكريها المخلصين، والثاني: تشكيل نُخَب غير موالية للأمة تروِّج لكل ما يهدم أسس عقيدتنا وحضارتنا، والثالث: ضخّ الأفكار الهدامة، والسعي لتغيير قناعات وأفكار المسلمين.

٤- سيطرة الأفكار المعادية للإسلام، ومن خلفها خصوم الأمة على العقول المؤثرة في العالم الإسلامي بشرائها، أو بتوجيهها من خلال برامج مؤثرة وفعالة، تم اختبارها وتحسينها منذ فترات الاستعمار وحتى الآن.

٥- أزمة السلطة في العالم الإسلامي؛ حيث لم يفلت متخذو القرار من الهيمنة الخارجية، ولذا يقع الكثير من أصحاب القرار فريسة لأعداء الأمة، ينفذون أهداف الخصوم الخارجية ويعملون أحيانًا لخدمة أعداء الأمة. ويعد هؤلاء من أهم أسباب تراجع العالم الإسلامي؛ إذ إنهم يعيقون كل محاولات النهضة، ويقاومون كل جهد يسعى من أجل الاستقلال الفكري والسياسي، وإنهاء التبعية للخارج.

٦- خلل ناتج عن أسباب داخل الصف المسلم تتمثل في أسلوب التفكير لدى القادة ومتخذي القرار في العالم الإسلامي الراغبين في الاستقلال والعمل لمصلحة الأمة. وعدم النضج في التعامل مع الخصوم في معركة الأفكار.

٧- الخلل في الأولويات عند متخذي القرار، وعدم قدرة البعض على التعامل مع التحديات بالطريقة المناسبة، وفي الوقت المناسب قد يحقق البعض إنجازات في مجالات، ولكنه لا يحافظ على ما أنجزه، وسرعان ما يخسر ولا يكمل ما حققه.

ثانيًا: أهمية الأفكار لصانع القرار المسلم:

أظهرت التحديات التي تواجهها الأمة، والأخطار المحدقة بالمسلمين حاجة صانع القرار المسلم الماسة إلى الأفكار التي تعينه على اتخاذ القرارات الصائبة، في عالم يتسم بالتشابك والتعقيد. فمعركة الأمة مع خصومها لم تعد بسيطة كما كانت من قبل. ولم تعد المعركة بين خندقين بالمعنى الحرفي، أي خندق المؤمنين وخندق الكفار. لقد أصبح العالم أكثر تعقيدًا، لم يعد خندق المسلمين صافيًا محكومًا بالمخلصين، كما أن الخندق المعادي لا تحجزه عنا الحدود السياسية والجغرافية، بل أصبح متغلغلاً في الجسد الإسلامي ناشبًا حِرَابه في أوصالنا عبر شبكة معقدة من العلاقات الاقتصادية والسياسية والعسكرية التي تكبِّل المسلمين، وتقيّد حركتهم، ولا تتيح لهم أي فرصة لالتقاط الأنفاس، فضلاً عن الانطلاق وكسر القيود واستعادة الاستقلال والانعتاق من التبعية للخصوم.

إن العالم الإسلامي يتحسس مكانًا ليقف على قدميه، ويبحث عن منصة للانطلاق، لكن الخصم يسعى إلى التمكن منه، ولا يسمح له بأن يتجه ببصره إلى هذا الاتجاه.

إن تحرير العقول يبدأ قبل تحرير الأرض من أي استعمار. ويجب أن نتخلص من تحميل خصوم الأمة وِزْر كل ما يحدث، وكأننا نبرئ المسلمين من تحمل مسئوليتهم. يقول مالك بن نبي: «إنه لكي نتحرر من الاستعمار يجب أن نتحرر أولاً من سببه، وهو القابلية للاستعمار. فكون المسلم غير حائز جميع الوسائل التي يريدها لتنمية شخصيته، وتحقيق مواهبه: ذلك هو الاستعمار، وأما ألا يفكر المسلم في استخدام ما تحت يده من وسائل استخدامًا مؤثرًا، وفي بذل أقصى الجهد ليرفع من مستوى حياته، حتى بالوسائل العارضة، وأما ألا يستخدم وقته في هذه السبيل، فيستسلم -على العكس- للحظة إفقاره وتحويله كمًّا مهملاً، يكفل نجاح الفنية الاستعمارية: فتلك هي القابلية للاستعمار».[٩]

ولا شك أن صناع القرار الإسلامي يحتاجون إلى انتقالة فكرية في مجال

تحرير العقول، وهذا التحرير أصبح من الحتميات التي لم يعد من المقبول تأجيلها، وهو يمثل بداية لاستعادة زمام القيادة ولتحرير أرض الإسلام. وهذا الأمر ليس بالأمر السهل؛ فالعدو يعمل على جبهتين بشكل متوازٍ وهما: السيطرة العسكرية، والتأثير على عقول صناع القرار، إما بالسيطرة عليها أو بإقصائها وحجبها عن التأثير.

ربما كانت طبيعة الوضع الدولي السابق قد ساهمت في التأثير السلبي على أفكار أصحاب القرار الإسلامي، ولكن التغيرات الجارية بفعل تصاعد حالة المقاومة ضد التدخل الخارجي، ومع النقلات الهائلة في تكنولوجيا الاتصال، وسرعة انتقال المعلومات، كل ذلك ساهم في تحرير قطاعات لا يستهان بها من العقول الإسلامية، وأدى إلى تآكل الهيمنة الغربية على الصعيد الاجتماعي والثقافي، وانحسارها في بُعْدَيها العسكري والاقتصادي. ولاستكمال مشروع التحرر فإننا نرى أن صناع القرار الإسلامي يحتاجون بشكل دائم ومتواصل إلى أفكار جديدة تستثمر هذا التغير الاستراتيجي للانطلاق والانعتاق. ونحن هنا لا نتحدث عن صناع القرار الموالين للخصوم، أو الذين يعملون بإرادتهم وفق أجندات خصوم الأمة؛ فهؤلاء يجب كشف توجهاتهم، وأن تعمل الأمة لاختيار من هم أفضل منهم لقيادتها.

إن الحديث عن تحرير العقول الإسلامية لا ينسج على منوال من يريدون إشغالنا بالجدل حول الاجتهاد في قضايا الإسلام الثابتة، والزعم بأن المشكلة في ديننا. إن ما نقصده هنا هو إزالة الغشاوة من على بعض العيون، وزيادة القدرة على قراءة الواقع بشكل صحيح، وتحديد الأهداف، ووضع الخطط المفصلة لتحقيق هذه الأهداف.

إن الأمة الإسلامية لديها من الثروات وأسباب القوة ما لا يتناسب مع ضعفها الحالي، وقد يرجع ذلك أولاً للبعد عن الالتزام الصحيح بالإسلام، ثم لغياب القرار القادر على توظيف هذه الإمكانات. وهذا القرار مفقود لمشكلة تتعلق بالإرادة. وليس المقصود من الإرادة هنا إرادة كُل دولة إسلامية منفردة. وإنما الإرادة الجماعية للعالم الإسلامي. إن هذه

الإرادة الجماعية تحتاج إلى أفكار وعقول ناضجة تتفاعل مع الواقع، ولديها علم بالأسس والمنطلقات الراسخة التي تبني عليها الرؤى والاجتهادات، وهذه الاجتهادات يجب أن تكون قائمة على حقائق علمية ومعلومات واقعية تجعلها قادرة على الإقناع والتغلغل في التأثير على القرار المسلم، الذي يحتاج هذه الأفكار من أجل صياغة حلول عملية لمشكلات الأمة.

إن القيادي المسلم مُحاط بكَمّ من القيود ومحاصَر بعدد من المحاذير التي قد تحول بينه وبين اتخاذ القرارات الصائبة، لكن هذا لا يعني أنه إن وجد أفكارًا مقنعة لن يستفيد منها.

إن التحديات التي تواجه صانع القرار الإسلامي اليوم قد تدفعه دفعًا إلى التأكد من صحة توجهاته وأفكاره، فلا يوجد استقرار في شكل النظام الدولي المهيمن، ويترتب على هذا تغيرات في التحالفات وتبدل في العلاقات.

إننا على قناعة أن صانع القرار الإسلامي، سواء كان في السلطة أو خارجها، بحاجة متجددة إلى أفكار إبداعية تغيّر نمط التفكير السائد، وتوضّح الأولويات، وتساهم في ضبط وتجديد أساليب التفكير، بما يحقق مصالح الأمة، وبما يوقف عمليات الصدام الداخلية التي نراها في بعض الأقطار، وتوجيه الأنظار إلى العدو الحقيقي للأمة.

قد تكون الأفكار التي تطرح لا تدخل حيز التنفيذ على الفور، ولكن مجرد طرحها يمكن أنه يكون بداية صحيحة لوقف الأخطاء التي تطوي بين تكرارها أجيالاً من المسلمين.

إن ما نعانيه من سلبيات في ساحة الأفكار يتناقض مع ماضينا الذي شهد أروع التجارب وأنجحها في تاريخ البشرية، وهذه التجارب الناصعة توشك أن تطوى بسبب ما ضيَّعناه للأسف لتقصيرنا وإسلام قيادنا لأعدائنا. لقد حفلت التجربة الإسلامية في ميدان الأفكار بالكثير الذي يمكن الاستفادة منه اليوم في مواجهة التآمر الخارجي والداخلي.

ثالثًا: تجارب من تاريخنا حول تأثير الفكر على العمل الإسلامي:

التاريخ الإسلامي مليء بالمواقف والأحداث التي تُظهر براعة العقول الإسلامية وقدرتها

على ابتكار الأفكار التي كان لها أعظم الآثار على مسـيرة الأمة الإسلامية والبشرية جمعاء. لقد تميزت الأمة بتنمية روح الاجتهاد، واحتضان العقول المبدعة لخدمة الرسالة.

كانت المدرسة الإسلامية رائدة في توليد الأفكار منذ البعثة المحمدية؛ إذ كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو المعلم الذي تتلمذ على يديه الصحابة والتابعون، ومن سار على دربهم بعد ذلك. ومن يقرأ التاريخ الإسـلامي يتملكه الانبهار بالطاقات الذهنية التي فجَّرها الإسـلام، وكيف تم توظيف تلك العقول التي تميزت بالإخلاص والتفاني فيما ينفع الأمة والعالم أجمع. لقد اسـتطاع العرب بعد إسلامهم الخروج من الصحراء، ليس فقط خروجًا مكانيًّـا أو جغرافيًّا، ولكنه كان انطلاقًـا فكريًّا أيضًا، وكان تطورًا حافظ على العقائد ولكنه طوَّر الوسائل من أجل تحقيق الغايات.

ولحكمة أرادها الله فإن انتشـار الدين الإسلامي مرتبط بالجهد البشري المبذول في سبيل تمكينه. والنقلات الكبرى للمسلمين من زمن الاستضعاف إلى مرحلة التمكين كانت مرتبطة دومًا بمجموعة من الأفكار والاجتهادات العبقرية. يظهر هذا في المراحل المهمة من سـيرة الرسـول ـ صلى الله عليه وسـلم ـ والخلفاء الراشـدين من بعده. وحتى بعد انتهاء الحكم الراشـد؛ فإن الخلفاء الأمويين والعباسـيين، وانتهاءً بالعثمانيين، كانوا سـادة في سـاحة الأفكار وفقهاءَ بواقعهم. إن العقل المسـلم لم يتوقف عـن الإبداع وإطلاق العنان للعباقرة لترسيخ النفوذ الإسلامي في البقاع التي حكمها الإسلام.

الرؤى المعاصرة لرسول الله:

إن سـيرة جهاد الرسـول مليئة بالأفكار التي كان لها تأثير فعّال في حياة الدعوة، وترتب عليها تحولات ونقلات أعطت للإسـلام دفعات جنى المسـلمون مكاسـب منها: انتشار العقيدة، وترسيخ أركانها، وتخطي العقبات إلى ساحات أوسع وأرحب.

من هذه الأفكار التي كان لها تأثيرها ما يلي:

١ - من الأفكار الهامة في مسـيرة الإسـلام ما قاله الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عقب دخـول المدينة. لـم يلق خطبة عصماء كما يفعل أي قائد سياسـي عـادة، ولم يلق خطابًا

سياسيًّا لا يفهمه الناس. كانت كلمات الرسول الكريم بسيطة وقليلة، ولكنها من جوامع الكلم، وتستحق أن تدرس. يقول عبد الله بن سلام: لما قدم النبي - صلى الله عليه وسلم - المدينة، انجفل الناس قِبَله. وقيل: قد قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد قدم رسول الله. قد قدم رسول الله. ثلاثًا. فجئت في الناس لأنظر. فلما تبينت وجهه، عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب. فكان أول شيء سمعته تكلم به أن قال: «يا أيها الناس! أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام».(١٠)

كان هدف رسول الله حينها هو إرساء أسس نواة المجتمع الإسلامي الأولى، والتي سيبني عليها الدولة الإسلامية التي وصلت إلى ما وصلت إليه بعد ذلك. هذه الكلمات ستظل هي أسس بناء أي مجتمع مثالي، أربع نصائح: ثلاث منها لتماسك المجتمع، والتكافل بين أبنائه وتقوية اللُّحْمَة بين أفراده، والرابعة لبناء المسلم الرباني، وتدريبه على المشقة في الطاعة ليكون مسلمًا حقيقيًّا هدفه الآخرة والآخرة فقط. وهذا الجيل الذي رباه الرسول هو الذي فتح الأرض ونشر الدين في أعوام قليلة أذهلت كل المؤرخين.

٢- فكرة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار فور دخول الرسول المدينة بعد رحلة الهجرة كان لها تأثير كبير في نشأة دولة الإسلام. هذه الفكرة التي حوَّلت المدينة من أرض حرب ونزاع بين سكانها من الأوس والخزرج إلى مدينة فاضلة ومضرب المثل حتى اليوم في الإيثار والحب في الله. أزالت هذه المؤاخاة التمايز بين سكان المدينة من الأنصار ومسلمي قريش من المهاجرين. وتكشف كتب السيرة عن أمثلة رائعة من المودة والإيثار، حيث كان الأنصار يقتسمون أموالهم وممتلكاتهم وكل ما لديهم مع المهاجرين.

٣- بعدما أسس الرسول المجتمع المسلم على أسس متينة؛ ظهر التفكير الاستراتيجي في الغزوات والمواجهة العسكرية مع الكفار. لقد كان توكل المسلمين على الله مصحوبًا بتدبر الأسباب، والإعداد السليم قدر الاستطاعة لمواجهة العدو. استشار الرسول أصحابه في معظم أحواله، كان يدرِّب أصحابه على التفكير الحر، وطرح الأفكار الجديدة المتميزة؛

لمواجهــة التحديات التي كانت تواجههم في مراحل الجهــاد المختلفة. الأمثلة في ذلك لا تعد ولا تحصى. كان النبي ـ صلى الله عليه وســلم ـ يتجه في بدء سيره إلى غزوةٍ ما بعكس الجهة التي يريدها فعلاً، فقد يتجه شــمالاً عند بدء المســير، ولكنه ســرعان ما يغير سيره باتجاه الجنوب نحو عدوه، وما ذلك إلا من قبيل التعتيم على العدو.(١١)

كانت الحرب في عُرْف العرب كرًّا وفرًّا، وفاجأ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قريشًا في بدر بنظام الصفوف المتراصة التي لم تخرق. وفاجأ خالد بن الوليد الروم في اليرموك بنظام الكراديــس. وفي معركة نهاوند فاجأ المســلمون الفرس بتراجع قلــب الجيش عن قصد؛ لتَلْتَفَّ عليهم الميمنة والميســرة، وتم بذلك حصارهم. في موقعة ذات الصواري جعل عبد الله بن ســعد بن أبي ســرح قتال البحر وكأنه قتال في البر، عندما فاجأ الروم بربط الســفن الإســلامية مع سفنهم. في معركة الزلاقة فاجأ يوسف بن تاشــفين النصارى بنظام الكمائن التي دخلت ساحة المعركة في الوقت المناسب، وهي في غاية الراحة. فالقيادة المبدِعة في التنظيم والتخطيط، تبهر العدو وتفوِّت عليه حســاباته. وتضمن عنصر المفاجأة التي تربك العدو، وتجعله في حيرة من أمره.(١٢)

في غزوة بدر «خاض المسلمون الحرب بقيادة حكيمة رحيمة، استطلعت وقدَّرت حجم عدوها، ومن فيه من الرجــالات، وهي التي أمرت بقطع الأجراس من أعناق الإبل لتأمين ســرية الحركة والتنقل، وهي التي استشارت المهاجرين والأنصار، ورجعت إلى رأي أهل الــرأي، رأي الحباب بــن المنذر في اختيار موقع المعســكر، وقبلت رأي ســعد بن معاذ فــي بناء العريش ليكون مقرًّا للقيادة في موضع مشــرف على ميــدان القتال، مع حرس من المســلمين اختارهم سعد من فتيان الأنصار برئاسته، فكان العريش غرفة عمليات، ومكان القيادة والتوجيه.(١٣)

وخاض المســلمون الحرب بخطة مدروســة محــددة مقررة، وهي نظــام الصف والماء معهم، والشمس خلفهم. لقد فوجئت قريش بصفوف المسلمين المتراصة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

فنظــام الصف خطة محكمــة غيَّرت نظام الكر والفر الذي كانــت القبائل العربية تحارب بموجبــه ؛ حيث تبدأ المعركة بمبادرة بيــن الصفين المتحاربين ، ثم ينقض الطرفان ، حيث يقاتل كل فرد فردًا من الطرف الآخر.(١٤)

كان انتصــار بدر هو الفرقان بيــن الحق والباطل ، وأعلن عن ميلاد قوة جديدة في جزيرة العرب ، وأكد للمشركين من قريش وباقي القبائل أنهم أمام وضع جديد غيَّر كل الموازين ، وأنهم أمام سلطان الإسلام المتنامي المتخطي بثبات كل العوائق.

٤- فــي غزوة أحد التي هُزِمَ فيها المســلمون كان التخطيط النبوي ســليمًا ، ولكن عدم تنفيذ الرماة للخطة الموضوعة وراء الهزيمة. لكن هذه الهزيمة لم تكســر شوكة المسلمين ، ولم تضعفهم ، وإنما كانت مفيدة لهم وعلَّمتهم درسًــا استوعبوه جيدًا ، هذا الدرس مفاده أن المســلمين بدون الأخذ بأســباب القوة لــن يحققوا أهدافهم ، وأنه بــدون الإعداد قدر الاســتطاعة ، والطاعة للقــادة ، والتنفيذ المتقن للخطط لا يأتي النصــر حتى لو كان بينهم الرسول ، صلى الله عليه وسلم . الخطأ في أُحُد كان في مخالفة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، أما المسلمون فقد ظهروا في أول الأمر على المشركين حتى وقعت المخالفة.

٥- كانت غزوة الأحزاب معركة فاصلة لها الفضل في فتح الطريق إلى مكة بعد ذلك. ففي هذه الغزوة تحالفت قريش مع القبائل لاجتثاث المسلمين من المدينة ، وكان هذا التحالف يفوق قدرة المسلمين ، فكانت فكرة الخندق التي طرحها سلمان الفارسي وسيلة دفاعية مبتكرة لم يعتد عليها العرب ؛ فاستجاب لها النبي ونفَّذها. وتعد هذه المعركة من الوقائع الفاصلة في تاريخ الإسلام .

«قال سلمان الفارسي ، رضي الله عنه : إنا كنا بأرض فارس إذا تخوفنا الخيل خندقنا علينا ، أي فــإن ذلــك كان من مكايد الفــرس ، وأول من فعله من ملوك الفــرس ملك كان في زمن موســى بن عمران ، صلوات الله وســلامه عليه.(١٥) أعجب الجميع بالفكرة ، لاســيما وأنها فكرة مجرَّبة تشلّ حركة الخيل ، وهي قوة فعالة رئيسة عند قريش ، وعند ذلك ركب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرسًا له ، ومعه عدد من المهاجرين والأنصار ، فارتاد واستطلع

موضعًا يصلح لحفر الخندق، ويضمن موقع الدفاع المحكم عن المدينة».[16]

لم يكتف الرسـول بحفر الخندق، وإنما عمل على شق صفوف العدو وتفكيك تحالفهم بإثـارة الفرقة بينهم باسـتخدام أسـلوب التخذيل الذي أدى إلى انسـحاب اليهود وغطفان مـن هذا الحلف الكبير لتبقـى قريش وحدها. ولم يتجاهل النبي ضرورة دراسـة ما يحدث داخل صفوف العدو؛ ليتخذ القرارات بناء على معرفة ودراية، فكانت له العيون في الجهة الأخرى من الخندق تنقل له الأخبار.

جمعت قريش في غزوة الأحزاب جيشًـا قوامه عشـرة آلاف مقاتل، ولكنها فشلت حتى في تحقيق جزء يسـير مما أرادته، فضعفت ضعفًا ظاهرًا بعد انسـحابها وقد أُسـقط بيدها، وأصابتهـا ضائقة اقتصادية؛ لأن تجارتها باتت متوقفة مع الشـام، كما بدأت بعض القبائل تنظر إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أنه قوة ناشئة محترمة، فتقرب بعضها إلى المسلمين بعد هزائم قريش المتكررة.

«لقد تحول الموقف في جزيرة العرب ـ بعد غزوة الأحزاب ـ لصالح رسـول الله ـ صلى الله عليه وسـلم ـ فامتلك المبـادأة، وصار المتحكم في الموقف. وكسـب صلى الله عليه وسلم الرأي العام، عندما خرج باتجاه مكة، وقد ساق الهدي؛ ليُثبت للعرب كافة تعظيمه للبيت الحرام. لقد سار بالهدي يريد العمرة، فالظروف مواتية، والفرصة متاحة بعد استتباب الأمن في المدينة المنورة».[17]

٦- كانـت نتيجة الخندق وهزيمة التحالف المعادي الذي تقوده قريش في غزوة الخندق بدايـة لمرحلـة جديدة في حياة المسـلمين، فقد انتقل المسـلمون بعدها مـن الدفاع إلى المواجهة والإمسـاك بزمـام المبادرة. لقد أدرك النبي صلى الله عليه وسـلم طبيعة الموقف بشـكل صحيح، فكان التحـرك بتطهيـر المدينة من اليهـود الخائنين للعهـد، وتخليص المجتمع المسـلم من أسباب الفتنة. ولما استقر له الأمر في المدينة قرر التوجه إلى مكة في إظهار للقوة من نوع آخر؛ ليس بالحرب وإنما بالسـلم واضعًا قريشًا في اختبار أخلاقي لم تتوقعه. لقد خرج ومعه ألف وأربعمائة مسـلم ومسلمة في أحد الأشهر الحرم التي يحترمها

العرب ؛ ليطرق باب مكة لأداء العمرة. كان القرار مباغتًا لقريش. ولم يتصور قادة قريش أن يأتي المســـلمون يسوقون الهدي في ملابس الإحرام، يريدون دخول الحرم، رغم ما بينهم مـــن دم. وهنا ثارت ثائرتهم وقرروا منع المســـلمين من الدخـــول. ودارت المفاوضات بين الطرفين عدة أيام انتهت بصلح الحديبية.

٧- **الحديبيــة**: مــا حدث في صلح الحديبية يمثل نقلة نوعية في التفكير الاســـتراتيجي للقائد المسلم الذي ينظر إلى أبعد مما يراه خصومه وأصحابه. ففي هذا الصلح وافق الرسول صلى الله عليه وسلم على شروط الصلح، رغم رفض كبار الصحابة.

لقد حبا الله تعالى رســـوله -صلى الله عليه وسلم- ببعد النظر، ودقة التقدير، وكان يركز في المسألة على جوهرها ولُبَابها، فلم يحفل بالقشور والشكليات، فقدَّم التسهيلات لسهيل بن عمـــرو مندوب قريش؛ ليضمن موقفًا تفاوضيًّا أفضل فيمـــا بعد الحديبية، ورغم تفهم النبي لحماســـة المســـلمين وعاداتهم في ذلك الموقف إلا أنه لم يســـتجب لهزة الحماسة، لأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أدرى بما يخطط ويهيئ له، وأثبتت الأحداث بُعْد نظر رسول الله، ودقة تقديراته. ولما التأم الأمر على الصلح، ولم يبق إلا كتابة ذلك، أصر سهيل على أن يكتـــب العقد كما يراه ويتصوره، لا كما يراه رســـول الله، فتجـــاوز النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك ليحقق هدفًا مرسومًا واضحًا، فهو صلى الله عليه وسلم السياسي الحاذق، والمحنك البارع، مع النظر بنور الله عز وجل.(١٨)

لقد رأى النبي أمورًا وأهدافًا غابت عن عمر ـ رضي الله عنه ـ وعن بقية المســـلمين، إنه يريـــد ما بعد الحديبية، وما يحققه هذا الصلح من هدنة وطمأنينة بين المســـلمين وقريش، ومنها: تطهير الصف الداخلي، والتفرغ لليهود الذين كانوا وراء المؤامرات التي تُحاك ضد المســـلمين، مع الاهتمام بنشر الإســـلام بين القبائل في جزيرة العرب، وتبليغ الدعوة إلى الملـــوك والأمراء خارج الجزيرة العربية، وكســـر عداوة قريش؛ لينفذ الإســـلام إلى قلوب أبنائها في جو من حقن الدماء والهدنة والاعتراف المتبادل، وأن يشـــعر العرب جميعًا بِنِدِّيَّة المسلمين لقريش صاحبة المكانة الرفيعة بين العرب.(١٩)

حقق الصلح اعترافًا رسميًا بالمسلمين، وأضحى المسلمون فيه طرفًا مساويًا لقريش صاحبة الزعامة والنفوذ في جزيرة العرب، مع الحق الكامل في نشر دينهم، وهذا غاية ما يبتغون.[٢٠]

كانت الحديبية نقطة تحول كبرى في تاريخ الدعوة والدولة معًا، فبعد الحديبية انفتح الطريق أمام انتشار الدعوة وامتداد الدولة، وذلك بفضل بُعْد نظر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومهارته السياسية الفائقة.[٢١]

٨- مع الهدنة وتأمين الجبهة مع قريش، بدأ الرسول يوجِّه الرسل إلى الملوك والأمراء ورؤساء القبائل يدعوهم إلى الإسلام، وكان هذا توجهًا مؤثرًا، وأدى إلى نتائج كبرى. فقد كانت دعوة رءوس القوم وأسرع طريقة في ذلك الوقت لنشر الإسلام، ومن الأفكار الهامة التي طبقها الرسول هي إقرار الزعماء الذين أسلموا على مواقعهم، وهذا أعطى رسالة مفادها أن الإسلام ما جاء من أجل أطماع دنيوية في سلطة ولا للتسلط على الشعوب.

٩- ومن الأفكار التي استجاب لها الرسول لما فيها من حكمة ما أوصى به نوفل بن معاوية الدائلي عند حصار المسلمين للطائف التي تحصنت فيها ثقيف، رغم إسلام كل القبائل. لقد استشار النبي نوفلاً في المقام على حصار ثقيف، فقال له: يا رسول الله، ثعلب في جُحْر إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرك، فأذن بالرحيل.[٢٢] وفي شهر رمضان من العام التاسع الهجري جاءت ثقيف مذعنة طائعة إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد عودته من تبوك، وذلك بعدما يقرب من عام من حصار الطائف وفكه عنها، وأعلنوا إسلامهم.

وقد شاور النبي أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ في تولية أمير على الطائف بعد إسلام ثقيف، فأشار عليه أبو بكر بتولية عثمان بن أبي العاص، وقال له: يا رسول الله إني رأيت هذا الغلام فيهم من أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم القرآن، فعمل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمشورة أبي بكر وولاه.[٢٣]

١٠ - خطــر الروم: كان التحدي الذي يواجه المســلمين في بدايــة الدعوة كفار قريش، ثم اليهود في المدينة، لكن بعد انتشــار الإســلام في الجزيرة وتزايد نفوذ المسلمين وبروز قوتهم؛ كان الخطر الأكبر يأتي من قِبَل الروم، والذي اســتمر من حينها وحتى اليوم. وقد وعى الرســول ـ صلى الله عليه وســلم ـ لهذا التهديد مبكرًا، وعمل له ووجَّه الأنظار ـ عبر رسائل ومواقف عديدة ـ إلى أن هذا العدو لا يُجْدِي معه سوى الردع.

بدأ النبي يعطي عناية بالغة إلى جبهة حدود الدولة الإســلامية مع الشــام ـ حيث يســيطر الروم ـ منذ بداية العام الخامس الهجري، إذ غزا بنفســه دومة الجندل، ثم أرســل زيد بن حارثة إلى وادي القرى، ثم أرســل عبد الرحمــن بن عوف إلى دومة الجندل ثانية؛ وذلك لإظهار هيبة الإسلام في هذه الجهات ثم لإنذار القبائل العربية فيها.(٢٤)

وبدا ذلك بشــكل أكثر قوة في غزوة مؤتة؛ عندما أخرج الرسول جيشًا من المدينة، ولم يكن قد فتح مكة، لمقاتلة الروم ومن معهم من حلفائهم من العرب الغساسنة ردًّا على قتل مبعوث الرسول الذي كان يحمل رسالة إلى ملك بصرى في الشام. كان الدرس الذي خرج به المســلمون من مؤتة هو أن الروم هم عدوهم الرئيسي في هذه الجهات. وأنهم قد أعلنوا عليهم الحرب، ولن يتركوهم يدعون إلى دينهم في سلام وأمان وحرية، بل ربما يهاجمون الإسلام في بلاد العرب نفسها.

الأمر لم يكن لحظتها اعتداءات عفوية متفرقة على الإسلام والمسلمين، وإنما هو أخطر مــن ذلك، فهو تحالف بين القبائــل العربية وبين الروم ضد دولة الإســلام الوليدة، وضد الدعوة الإســلامية والتصدي لهــا ومقاومتها لذلك كانت موقعة مؤتــة، وكان ما تلاها من أحداث وتطورات بين المســلمين والروم.(٢٥) كان هدف الغزو تأمين الدعوة إلى الله، فمن منع دعوة الله قُتل. وجاء العام التاسع للهجرة، وعندئذ تجمعت لدى النبي ـ صلى الله عليه وســلم ـ أخبار أن الروم قد حشدوا قواتهم على الحدود الشمالية؛ لمهاجمة المسلمين في عقر دارهم، وكان الوقت عسيرًا قاسيًا، ولكن الموقف كان خطيرًا، ولا يحتمل الانتظار، وعلى الفور وبمســئولية القائد العظيم اســتطاع النبي أن يجمع ثلاثين ألفًا من المســلمين، وكان هذا أكبر جيش يقوده النبي في حياته، وقد سمي جيش العسرة.(٢٦)

وكانت غزوة تبوك التي قادها النبي بنفسه، وفي هذه الغزوة نزلت سورة التوبة التي تتضمن الكثير من الأحكام حول الجهاد، وهذا التلازم بين هذه الغزوة وسورة التوبة قد يعطي إشارة إلى أن معركة الأمة الإسلامية مع الروم ممتدة ولن تنتهي.

الخلفاء الراشدون:

أدار الخلفاء الراشدون الدولة الإسلامية بمثالية واقتدار، وعملوا على توطيد أركان الدولة، فخاض أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ ثلاثة حروب في وقت واحد، وبجسارة وقوة عزيمة؛ إذ حارب المرتدين، وسيَّر الجيوش إلى بلاد فارس والروم، وكان لهذا القرار أثره في إرهاب المنافقين واستقرار الأمر بعد ذلك.

وجاء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ليواصل الفتوحات، ويحافظ على صفاء الحكم الراشد، وعلى نفس النهج سار عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ، قبل أن يستعيد المنافقون وخصوم الدعوة قوتهم ويطعنوا قلب الإسلام بقتل عثمان، وجاء علي بن أبي طالب الخليفة الرابع ـ رضي الله عنه ـ ليعاني من رءوس الفتنة، وينشغل بالخلاف مع معاوية، رضي الله عنه.

الدولة الأموية:

وسَّع الأمويون رقعة الدولة الإسلامية، وسخَّروا إمكانات دولتهم في الفتوحات، واستثمروا قوة الدفع الإسلامية في تمديد الحكم الإسلامي شرقًا إلى بلاد ما وراء النهر، وغربًا إلى الأطلسي ثم الأندلس، ومن الأفكار المهمة التي نفذوها، والتي أفادت المسلمين في عهدهم وبعدهم إنشاء الأسطول الإسلامي، وخوض البحر، والذي كان سببًا في تحويل البحر الأبيض إلى بحيرة إسلامية، وتحجيم الروم، وحبسهم في الضفة العليا للمتوسط.

الدولة العباسية:

بعد ضعف الأمويين جاءت الدولة العباسية، فحافظت على حدود الدولة، وكان للعباسيين

الفضــل في الاهتمام بالفكر والثقافة ؛ فأنشــأوا المكتبات ، واهتموا بالكتب. وأنشــأوا دار الحكمة في بغداد التي كانت من معالم الحضارة في ذلك الوقت ، وشــهد العصر العباســي نهضة علمية كبرى في الوقت الذي كانت فيه أوروبا تعيش في ظلام الجهل.

دولة المماليك:

ومع قيام المماليك بحماية الخلافة ظهر أسلوب جديد في إدارة الحكم الإسلامي. إذ كان التفكير الاســتراتيجي حاضرًا في إدارة الحكم. ولــم ينتظروا التتار حتى يدخلوا مصر وإنما خرجوا ليلاقوهم خارجها ، ويكسروا هذا الهجوم التتري الذي ذاق منه المسلمون الويلات. حافظ المماليك على سلطان الإسلام قدر استطاعتهم ، فأرسلوا جنودهم إلى الهند ليقاتلوا الاستعمار البرتغالي ؛ إذ رأوا أنها حركة التفاف حول العالم الإسلامي. ورغم أن المماليك هُزِمُوا هناك ؛ فإن الواقعة تشير إلى وجود الوعي وإن كانت القوة قد بدأت تزول.

الخلافة العثمانية:

ولقــرب العهــد بها ، وللدور الذي قامت بــه في قلب أوروبا ، فمن المفيد الإشــارة إلى مــا قامت به الدولــة العثمانية. لقد ضــرب العثمانيون المثل في أهميــة الأفكار ، ومواجهة الخصــوم بالعقل والدهاء ، ونجح بنو عثمان في إدارة العلاقات مع العالم الخارجي بكفاءة تثير الإعجاب. درس العثمانيون أوروبا جيدًا ، واستفادوا من كل التناقضات ، واستغلوا كل الخلافات بين الأوروبيين ، وبســبب العقليات الفذة للقادة العثمانيين استطاعوا فتح نصف أوروبا.

استفاد العثمانيون من الصراعات بين ملوك فرنسا وأسبانيا للهيمنة على أوروبا ، واستثمروا الخلافات المذهبية بين الكاثوليك والبروتســتانت في فتح القســطنطينية ؛ إذ حاصر محمد الفاتــح العاصمة البيزنطية نحو شــهرين ، دون أن تتلقى مســاعدة من الغــرب الكاثوليكي والبروتستانتي الكاره لكنيسة بيزنطة الأرثوذكسية.

كما يُعتبر صناعة المدفع العملاق لفتح القسطنطينية مثالاً معبرًا يكشف إلى أي مدى وصلت

العبقرية العثمانية، فقد أخذوا بكل أسباب القوة، واستقدموا العمال المهرة للاستعداد لفتح العاصمة التي لم ينجح المسلمون أكثر من مرة في اختراق أسوارها المنيعة.

«في تلك الأثناء حضر إلى الفاتح المهندس المجري أوربان، وهو أمهر صانع للمدافع في زمانه، وكان قد طاف ببعض بلدان أوروبا، وعرض صناعته على بعض ملوكها، فلم يصغِ إليه أحد. وقصد هذا المهندس القسطنطينية، ولبث هناك زمنًا يعرض خدماته على قسطنطين، غير أن الإمبراطور ضنَّ عليه بالمال. فر أوربان إلى محمد الفاتح الذي استقبله استقبالاً حسنًا، وبالغ في الحفاوة به، وفتح له أبواب خزائنه وغمره بالمال والعطايا، وعرف كيف يستغله أحسن استغلال، وسهَّل له كل الوسائل لإتمام إنتاج المدافع، ووضع تحت تصرفه ما طلبه من آلات وعمال وفنيين».(٢٧)

فظهر إلى الوجود المدفع العملاق الذي يزن سبعمائة طن، وتزن القنبلة الواحدة التي يطلقها هذا المدفع اثني عشر ألف رطل، ويجره مائة ثور، يساعدها مائة من الرجال الأشداء يزحفون به زحف السلحفاة، وعندما أريد تجربته لأول مرة في أدرنة أنذر السلطان سكان المنطقة، فسُمِعَ دَوِيُّهُ على بُعْد ثلاثة عشر ميلاً.

وصنع أوربان إلى جانب هذا المدفع الضخم الذي دعوه بـ «المدفع السلطاني»؛ لأنه سلطان المدافع، مدافع أخرى من عيارات مختلفة، فأصبحت بذلك قوة المدفعية العثمانية متفوقة على قوى المدفعية كلها في العالم، وكان لهذا التفوق أثره الحاسم في فتح القسطنطينية وفي فتوح العثمانيين في أوروبا وغيرها في أيام محمد الفاتح وخلفائه من بعده.(٢٨)

كان هذا المدفع في عصره بمثابة أقوى أسلحة عصرنا هذا، ولكن العثمانيين لم يصنعوا المدفع لإبادة سكان القسطنطينية كما تفعل الأسلحة النووية وغيرها من ابتكارات الغرب العسكرية، وإنما فقط لهدم أسوارها المحصنة، وهذا بشهادة الصليبيين أنفسهم.

إن نجاح العثمانيين في إقامة دولتهم، والسيطرة على نصف أوروبا، وإسقاط الإمبراطورية

الرومانية الشرقية يرجع إلى العقلية الفذة لقادة هذه الدولة، ودراستهم لكل شبر في أوروبا، فقد كانوا خبراء بكل تفاصيل هذه المنطقة، وكان لديهم تصورات وخطط للتعامل مع كل صغيرة وكبيرة. ولهذا السبب فقد حرص الحلفاء عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى وسقوط الخلافة على الاستيلاء على الوثائق العثمانية؛ لدراستها والاستفادة منها.

رابعًا: مجالات اهتمام الرؤى المعاصرة:

إن التحديات المتنامية والمتشابكة والمعقدة التي نعيشها اليوم يصعب احتوائها كما يصعب تحقيق الاقتدار في إدارة مواجهتها دون توفر الرؤى الاستشرافية والبحثية لصناع القرار والمثقفين في العالم الإسلامي. فالواقع اليوم بتعقيداته يختلف عن الأزمان السابقة، ولم تستقر الأحوال بوضوحها وبروز الخطوط الفاصلة بين الجغرافيا والسياسة كما كانت في السابق. فالحياة اليوم اختلفت؛ إذ تسارعت عجلة الحياة وزادت وتيرة الحركة في كل الاتجاهات، وتشابكت الأشعة والموجات والبثّ الذي يحمل المعلومات في خطوط تملأ الفضاء والكون. وهذا الازدحام انعكس على الأفكار والمفاهيم.

لم يعد من يملك المحتوى الفكري قادرًا على كسب هذه المنافسة دون امتلاك خطة واضحة المعالم ووسائل توصيل هذا المحتوى وهذه الأفكار إلى الأشخاص المستهدفين. ونحن كأمة أغلى ما نملكه هو العقيدة الصحيحة والفكر الواضح الذي يصل إلى العقول ويشبعها دون عناء، ويصبغها بمجرد التغلغل في أنسجتها. لكن مع حالة الانكسار الذي نعيشه حدث التشتت الفكري الذي نشاهد آثاره الآن.

بسبب غياب الرؤى الأصيلة التي تتسم بالمعاصرة فشلت محاولات النهضة في العالم الإسلامي، ولم تعد تجدي الخطط التي نجحت في بلاد أخرى نفعًا في بلادنا. إن أيّ نهضة لا بد وأن ترتبط بعقيدة وثقافة شعبها، ونادرًا ما تنجح نهضة في بلد ما بثقافة وافدة عليه. كما أن الخطط المادية فقط المنفصلة عن أي بُعد ديني وثقافي لا يكتب لها النجاح غالبًا. والتجارب المعاصرة شاهدة على ذلك، فلم تنجح الخطط العديدة التي أُخِذَتْ من النظام

الاشـتراكي في تحقيق التقدم، ولم تفلح في انتشـال البلاد الإسلامية من خندق التخلف، وتكرر ذات الفشل مع اتجاه البوصلة غربًا، وتطبيق الخصخصة والنظام الرأسمالي.

وعندمـا تغيب الرؤى المعاصرة التي تنطلق من الإسـلام كأسـاس حاكم لأي مشـروع نهضـوي، تصبح مقاييس التقـدم مغلوطة، لأنها تكون قائمة على أسـس مادية ونفعية لا تعبـر عن النهوض الحقيقي، فمقياس النهوض قائم في ذلك الحين على الحالة الاقتصادية فقـط، مع تجاهل كل القيم الأخرى. وهذا الفهم المادي يحجب العين عن رؤية أي مجال آخر غير المال، ويصبح تقويم كل شـيء بالقيمة فقط، وتركز الخطط التي تطبق في الدول علـى الاقتصاد، وتتجاهل التعليم والصحة والثقافة والدين. إن معظم تلك الخطط تتجاهل الدين، وبعضها يبلغ به الانحراف ذروته ويجاهر بمحاربة الدين.

لقد فشلت الخطط المستقاة من المناهج غير الإسلامية في بلادنا، رغم نجاحها في بيئات غيـر بيئاتنا لتجاهلها العنصر القادر على إطلاق عجلة القوى الإنتاجية، «فمشـكلة المفجر الملائم للبلاد الإسـلامية يجب أن تجد حلها بعيدًا عن النظريات المشـتقة من آدم سـميث وماركس».(٢٩)

إن أخطر ما يترتب على غياب الرؤى الإسـلامية المعاصرة هو انزلاق الأمة في دوامة من التيه، وسـقوطها في مسـتنقع التبعية؛ وأدى ذلك إلى ارتماء البعض في أحضان الخصوم يطلب النجاة كمن ينتظر من إبليس النصح والرشاد.

لقـد ضاعت الأولويـات عند هؤلاء، واهتم بعض أصحاب القـرار الراغبين في النهوض بالأقل أهمية وإهمال الأكثر أهمية. وتم تبديد ثروات المسلمين وطاقاتهم في قضايا لا تجلب خيرًا، ولا تسـمن من جوع. إن «المجتمع المتخلف ليس موسومًا حتمًا بنقص في الوسائل المادية، الأشـياء، وإنما بافتقار للأفكار، يتجلى بصفة خاصة في طريقة استخدامه للوسائل المتوفرة لديه، بقدر متفاوت من الفاعلية، وفي عجزه عن إيجاد غيرها، وعلى الأخص في أسـلوبه في طرح مشـاكله، أو عدم طرحها على الإطلاق، عندما يتخلى عن أي رغبة ولو مترددة بالتصدي لها».(٣٠)

إن مواجهـة التحديات تقتضي أن يتركز اهتمام الرؤى المعاصرة في الأمة على التحديات الفكرية والاسـتراتيجية والسياسـية التي تواجه الأمة الإسـلامية، سـواء على المسـتوى الداخلي، أو في علاقات الأمة مع الدول والشـعوب غير المسلمة، أو على مستوى الرؤى

الفكرية والحضارية الخاصة بمستقبل العالم الإسلامي. ومن المهم أن تركز هذه الرؤى المعاصرة بمجموعة محددة من المشكلات والقضايا التي يمكن أن تنحصر في التالي:

١- تقديم دراسات تحليلية لقضايا تشغل اهتمام صانع القرار الإسلامي:

إن كثرة الاهتمامات وتشعب التخصصات وازدحام الأخبار بالأحداث وتعقُّد القضايا لم يعد يسمح لصانع القرار بالقدرة على الإلمام بكل القضايا، ولم يعد في وسعه ولا في وسع مستشاريه ملاحقة الأحداث والإحاطة بالمستجدات والتطورات الجارية. ومن هنا فإن صانع القرار في حاجة دائمة إلى دراسات مركزة لكل قضية، وقائمة على أسس علمية سليمة، ووافية من حيث المضمون والتحليل، ومخلصة في تقديم التصورات وطرح التوصيات العملية والنافعة.

هذه الدراسات يجب أن يقوم بها متخصصون على دراية كاملة بالموضوع محل البحث، وتتوفر لديهم المعلومات، وأدق التفاصيل، وتتاح لهم كل الوسائل التي تمكّنهم من تقديم المشورة والرأي الذي يفيد في تحقيق أكبر المكاسب لصالح الدولة ولصالح الأمة.

يجب أن تركز هذه الدراسات أيضًا على القضايا المهمة والملحة التي تشغل صانع القرار الإسلامي، وليس القضايا الهامشية التي تبدِّد الوقت والجهد، ولا تصب في صالح الأمة. الأولوية يجب أن تعطى كذلك للقضايا التي تحتاج إلى سرعة التعامل معها، والتي يكون عنصر الوقت فيها مؤثرًا. وهذه الدراسات تحددها الثوابت العقائدية والمصلحة العليا للأمة.

ولا ينبغي أن تكون هذه الدراسات والرؤى انعكاسًا لرد فعل خارجي، أو إعادة ترويج لموضوعات وافدة هدفها شغل صناع القرار والنخب بقضايا غير ذات قيمة، واستفراغ الجهد والطاقة في ما لا يفيد.

٢- حلول عملية لمشكلات معاصرة في مجالات الفكر والاستراتيجية:

لكي تكون الرؤى معاصرة وناجحة لا ينبغي أن تغرق في السرد والوصف، وإنما عليها أن تقدم حلولاً عملية للمشكلات المعاصرة، وتتوسع في تقديم المقترحات والبدائل، وتضع

العديد من الخطط والسيناريوهات أمام صانع القرار، وتطرح أكثر من وسيلة لمواجهة التحدي المطروح.

يجب أن تتميز هذه الرؤى بأنها شاملة، تعالج كافة القضايا المعاصرة في شتى المجالات الفكرية والسياسية والاستراتيجية. وقد جدَّت اليوم قضايا لم تكن في السابق، ولا يوجد إسهام فكري كاف فيها يساعد في خدمة صناع القرار.

فهناك العديد من التحديات الفكرية التي تحتاج إلى دراسات جادة للتعامل معها، مثل الهجوم على الإسلام، والنبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، والطعن في الإسلام في الخارج وداخل المجتمعات الإسلامية، والتغريب الذي يشكِّك في الدين، ويصنع الموالين لخصوم الأمة، ووجود خصوم للإسلام داخل المجتمعات الإسلامية، يجاهرون بإعلان عداوتهم، وغير ذلك من قضايا العولمة والديمقراطية والبثّ الفضائي، وثورة الاتصالات التي تقتضي المعالجة وفق الثوابت والمصلحة العليا للأمة.

إننا نواجه تحديات استراتيجية في مقدمتها: الغزو العسكري الذي تتعرض له الأمة، ونزول الجيوش المعادية إلى أراضي أكثر من بلد إسلامي، وتوسع هذه الحالة بما يمثل حروبًا صليبية جديدة. يقتضي هذا الهجوم العسكري أن تركز الرؤى المعاصرة على كيفية مواجهته، وتقديم الأفكار الرشيدة للتصدي له وإزالة خطره. ويجب أن تتميز هذه الدراسات بالنضج والدراية دون تهور مُضِرّ أو جبن مُهلك.

إن المواجهة تحتاج إلى إسهامات في أكثر من اتجاه، ودراسات لحركات وقوى المقاومة، وأخرى للحكومات الإسلامية، وهي تحتاج كذلك إلى تبصرة الأمة بأهمية المقاومة، والوقوف على نقاط القوة والضعف في الكيان المسلم، وكشف أسباب القوة والضعف لدى الخصم. وتأتي أهمية هذا النوع من الإسهامات الفكرية لطبيعة المعركة الدائرة، والتي تلعب الأفكار فيها دورًا محوريًّا، ربما يفوق القدرة العسكرية لكل طرف، خاصة مع الطفرة في وسائل الإعلام والاتصال التي باتت أكثر تأثيرًا، ربما من أشد الأسلحة فتكًا وتدميرًا.

ومن التحديات التي تواجهها الأمة المكر السياسي المعادي الذي يسعى لتحقيق مصالح خصوم الأمة بأقل خسائر ممكنة وبدون قتال. ولغياب الوعي السياسي؛ فإن الأمة تخسر الكثير من المعارك السياسية، وأصبحت التجارب مكررة، نخرج من خسارة لنقع في خسارة أخرى. لم يعد صناع القرار على وعي كاف بالإمكانات المتاحة لهم، ولا يشعرون

بعوامل قوتهم، ويجهلون نقاط الضعف عند خصومهم، وفقد بعضهم مناعته أمام المكر السياسي للآخرين.

كنا في السابق لاعبين أساسيين في الملعب السياسي، وكان صناع القرار الإسلامي قادة مؤثرين. وكان أجدادنا أساتذة ومعلمين وعباقرة في فنون السياسة الشرعية، أما اليوم انقلب الحال وأصبحنا في ذيل القائمة.

إن أهمية الدراسات في المجال السياسي هي في إعادتها الثقة أن الأمة قادرة على مواجهة المناورات والتحديات، وتطرح «وصفة علاج» من الأفكار لوضع المسلمين على طريق الاستقلال من التبعية، ووضع أساس حقيقي للعقل المسلم؛ ليبصر طريقه نحو النهوض، وكشف أسلوب تفكير الآخرين، وطرح أسس الانطلاق السياسي الإسلامي.

المستهدف هنا ليس فقط صانع القرار داخل أروقة السلطة في العالم الإسلامي، وإنما يشمل أيضًا قادة العمل السياسي الإسلامي، وربما الصنف الثاني هو من يحتاج بصدق إلى جهد مضاعف لتعظيم دوره الإيجابي، ولمنع انحراف مساره بما يساهم في تماسك الأمة أمام أعدائها، والقضاء على حالة الانقسام داخلها، ويتم هذا من خلال تقييم التجارب السياسية بشكل علمي ومخلص.

تهدف الدراسات من هذا النوع إلى توجيه صانع القرار الإسلامي إلى العمل للإسلام، ولإعلاء كلمة الله على حساب تضخيم الذات والإعلاء من الكيانات الأخرى والرايات الإقليمية أو الوطنية فقط.

٣-التعريف بقضايا أو مشكلات جديدة على ساحة العمل الإسلامي:

تشهد ساحة العمل الإسلامي الكثير من القضايا التي تحتاج إلى أفكار مبتكرة، سواء على صعيد العلاقات البينية بين فصائل العمل الإسلامي المختلفة، أو بين المؤسسات الإسلامية وبين حكومات العالم الإسلامي، أو بين المجموعات الإسلامية والتحديات الخارجية. لقد نشأت بعض فصائل العمل الإسلامي كحركات تحرر ضد الاستعمار، ونشأت حركات أخرى في ظل الحكومات القُطْرِيّة تعمل لإقامة الدين. وقد تباينت المناهج الفكرية لهذه المجموعات، ولم تعد تمثل صورة نمطية واحدة. مع أن معظم الحركات الإسلامية تميل إلى الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في المنهج؛ إلا أنها تختلف في تصوراتها حول

وسائل التغيير من منطقة لأخرى حسب التحديات الموجودة داخل البلد الواحد ؛ ووفق توجهات مؤسسي هذه الحركات وموقف الدولة منها.

وقد شهدت ساحة العمل الإسلامي قضايا جديدة، فرضتها ظروف المواجهة مع الاحتلال في بعض المناطق، وبسبب المواجهة مع السلطة في بلدان أخرى، ومع الغزو الأمريكي لبعض البلدان. وقد ترتب على هذه المواجهات تباين في أساليب التفكير، كان إيجابيًّا في أحيان، وسلبيًّا في أحيان أخرى. كان الأداء الإسلامي مفيدًا في ساحات مواجهة الاحتلال والتصدي للغزاة، وكان سلبيًّا في العنف الداخلي. وترتب على الخلاف في السلوكيات خلافات في الأفكار، وباتت الساحة مليئة بالاتجاهات التي تفرِّق الصف الإسلامي أكثر مما تجمع قوى الأمة.

ونظرًا للتطورات في ساحة العمل الإسلامي ؛ فإن الجهد الفكري بات أمرًا ضروريًّا لتحسين الأداء وتجميع قوى الأمة ؛ لتعمل معًا، ولوقف التشتت والتنافر الذي نراه في بعض المناطق، والذي يؤدي في النهاية إلى تبديد الطاقات في معارك مفتعلة تصبّ لصالح المخططات المعادية. وهذا الانقسام هو الذي يعمق محنة الأمة ويزيد من أزمتها، وهو يغري الخصوم بمواصلة الهجوم.

٤- رؤى جديدة متميزة حول المشكلات والقضايا المعاصرة:

إن الأمة في حاجة إلى الانطلاق، وهذا الانطلاق يحتاج إلى الشرارة التي تقوّي العزم للتغلب على حالة السكون التي استمرت عقودًا من الزمن. إن الغرب هو أحد المخاطر الرئيسة التي تحول دون استعادة الأمة لاستقلالها وقوتها، وهو الذي يستخدم كل قواه لاستمرار السيطرة على المسلمين، ولا يتورع بعض الغربيين عن استخدام أشدّ الأسلحة فتكًا وتدميرًا لاستمرار بقاء العالم الإسلامي تحت السطوة الغربية، واستمراره في حالة الضعف والهزيمة التي يعيشها.

لذا فإن من القضايا التي تحتاج إلى جهد فكري مضاعف هي دراسة الغرب دراسة واقعية ؛ لتحديد طبيعة العلاقة بين الطرفين. فقد ثبت من أحداث التاريخ أن الغالب على قادة الغرب هو معاداة الإسلام بضراوة، وعدم قبول أي علاقة مع الإسلام ؛ إلا أن يكون المسلمون

تابعين له. وباءت كل المحاولات لإقامة علاقة نِدِّيَّة متكافئة مع دول الغرب بالفشل، ولم يحدث أن حدث التوازن في العلاقة إلا في النادر، أو بمعنى أدق وقف اعتداءات دول الغرب على المسلمين إلا عندما كان المسلمون يملكون القوة العسكرية الكافية لردعه.

ولطول فترة الاستعمار، وعملية التغيير والتبديل للنخب الموالية للغرب في بلادنا، تم تجميل صورة دول الغرب على غير الحقيقة، وتم إضفاء مسحة إنسانية زائفة على حضارة الغرب التي تغلب عليها نزعة الصراعات، وتم غرس صورة إيجابية عن الغرب تتنافى والواقع الحقيقي، تخفي غريزة حب القتل والعدوان المسيطرة على جانب كبير من العقلية الغربية، والتي ظهرت بجلاء في كل الحقب التاريخية المختلفة. هذه الصورة الكاذبة تركِّز فقط على التقدم العلمي والعسكري، دون النظر إلى كمّ المذابح التي قُتل فيها الملايين، وحجم النهب الذي قام عليه هذا التقدم العلمي، وطبيعة المظالم التي ارتُكبت، ولازالت تُرتكب حتى اليوم من أجل استمرار هذا التفوق الذي وصل إلى إبادة ملايين البشر. إن هذه الحضارة «قائمة على المنفعة والسلب ونهب الأمم، وإخضاعها بكل وسيلة لسلطانها المتحضر».(٣١)

وتأتي أهمية الدراسات المتخصصة فيما يتعلق بالغرب وعلاقته بالعالم الإسلامي في أنها تكشف طبيعة العلاقة، وتزيل الصور المشوشة لضبط هذه العلاقة بما يفيد في تأسيس موقف صحيح، يحفظ للأمة حقوقها ويجعلها قادرة على استرداد قوتها وردع خصومها، وتحقيق التوازن في العلاقة، وإعادته بعيدًا عن حدود الأمة الجغرافية والسياسية.

لقد بات من الضروري معرفة ما يحدث في الغرب من تطورات وتباينات وتناقضات تستفيد منها الأمة في إدارة علاقاتها. فالغرب ليس كتلة واحدة، وعداء الغربيين لنا ليس على مستوًى واحد. بشكل نسبي فإن الغرب الأرثوذكسي أقل عداء من الغرب الكاثوليكي، الذي يقل عداءً عن الغرب البروتستانتي. وفهم الخلافات المذهبية والسياسية بين الغربيين قد يفيد في تخفيف الضغط على العالم الإسلامي، لحين كسر القبضة العسكرية عن رقبة الأمة. إن الاستفادة من التناقضات داخل المعسكر الغربي يفيد في إضعاف الحلف العسكري الذي يتحد ضدنا في حروبه المتواصلة لمنع الأمة من النهوض، ويقوي إرادة صناع القرار الإسلامي في التمرد والتصدي للهجوم ا لصليبي. ولكي ينجح مشروع النهوض الإسلامي فإنه يحتاج إلى هذه الدراسات المتعمقة التي تخضع كل شيء في المعسكر المقابل

للدراسة، فلن نستطيع مواجهة خصم لا نعرفه، أو نعتمد على ما يُعَرِّف به لنا نفسه.

وهـذه الدراسـات يجب ألا تقـل عمقًا عن ذات الدراسـات التي يجريهـا الغرب علينا. وهـذا الجهد البحثي الجـادّ يذكِّرنا بالدور الذي قام به الاستشـراق فـي توجيه الحملات الاستعمارية، فالاستشراق «هو عين الاستعمار التي بها يبصر ويحدق، ويده التي بها يحس ويبطش، ورجله التي بها يمشـي ويتوغل، وعقله الذي به يفكر ويستبين، ولولاه لظل في عميانـه يتخبـط».[٣٢] ولم يكن للغرب أن يهيمن على الأمة الإسـلامية إلا بعد الجهد الذي قام به المستشـرقون في كشـف نقاط ضعف الأمة، وتقديم الخطط والسيناريوهات للقادة العسكريين الغربيين؛ ليخترقوا قلب العالم الإسلامي، ويمزقوا أوصاله إلى اليوم.

فعلى سبيل المثال فإن الحملة الفرنسية على مصر لم تقدم على اختراق دار الإسلام «إلا وهي مزودة بأدق التفاصيل عن هذه الأرض وسـكانها، ومداخلها ومخارجها، ومشايخها وعلمائها، وعامتها وسوقتها، ونسائها، ورجالها، وجيشها وشعبها».[٣٣]

مثل هـذا النوع من الدراسـات يعطي صُنّاع القرار الإسـلامي القدرة على الرؤية السـليمة، والوقوف على أرض صلبة، واتخاذ المواقف الصائبة، ووقف مسلسـل التنازلات التي وصلت إلى المشاركة في دعم العدوان الصليبي تحت التهديد والوعيد.

خامسًا: كيف تكسب الأمة الإسلامية حرب الأفكار؟

إن معركة العقول والقلوب لا تقل حدة عن الصراع العسكري الجاري بين الأمة وأعدائها. وإذا كانت المعارك تعتمد على التكتيكات والاستراتيجيات؛ فإن حرب الأفكار تحتاج إلى اسـتخراج عصارة العقول، وتنمية أسـاليب التفكير؛ لتوظيف كل إمكانات الأمة للانتقال السريع من خندق الانكسار، والتبعية إلى ساحة المواجهة والتصدي لتحديات العصر.

كبداية لتنشـيط الأذهان، ولفتح الباب أمام العقل المسلم لخوض معركة الأفكار بخطًى مدروسة؛ فإننا نطرح مقترحات نأمل أن تساهم في تحقيق إنجازات في هذه الساحة:

١- الاعتزاز بالثوابت وربط الأفكار بالأسس الشرعية:

أي جهد فكري لا ينطلق من الإسـلام كعقيدة ودين الأمة فهو أبتر، فإن الأمة لا تنطلق

ولن يتغير حالها إلا بالعودة إلى الإسـلام كأسـاس للتحرك، ولن ينصلح حال المسـلمين اليوم إلا بما صلح به سلفهم.

• ولن ينجح المشروع النهضوي للعالم الإسلامي دون الاعتماد على العقيدة كمحرك وضابـط للجهد البشـري، والأفكار التي لا تتخذ من الإسـلام مرجعًا لهـا لن تصمد أمام التحديـات التي نواجههـا. ومن هنا فإن القائمين على المراكـز الفكرية التي تحتاجها الأمة يجـب أن يكون لديهم من العلم والفقه ما يسـاعدهم على تقديم الأفـكار الواعية بالواقع والمستندة إلى العلم الشرعي.

٢- رؤية جديدة لمصادر استقاء المعلومات:

منذ الاسـتعمار وحتى الآن اعتمد صنّاع القرار على مصادر المعلومات الغربية، وهذا في حد ذاته يشـكل خطرًا كبيرًا على اتخاذ القرار. فهذه المصادر تخضع لتأثير أجهزة المخابرات الخارجية، وما تضخه من معلومات في معظمها موجَّه لخدمة سياسـات هذه الدول. ولا يمكن بناء قرار سليم على معلومـة خاطئة، ومن هنا فإن تغيير بنية المصادر المعلوماتية خطوة مهمة في طريق التحرير. وعندما نتحـدث عن مصادر المعلومـات لا يقتصر كلامنا على متخذي القرار فقـط، وإنما على كل مراكز التأثير من منظمات وصحف وفضائيات وإذاعات، وغيرها من المنابر الإعلامية.

إن بنية مصادر المعلومات في معظم مؤسساتنا الإعلامية وغيرها تعتمد بشكل أساسي على مصادر المعلومات الغربية، ويُعاد ضخ هذه المعلومات كما هي للجمهور الأوسـع في العالم الإسـلامي، مما يؤدي إلى استمرار حشو العقل المسلم بالأفكار المضللة والمعلومات الكاذبة وتجميل القبيح، وتقبيح الصحيح.

وتبدو لنا الصورة كما ترسمها هذه المعلومات مشوهة؛ فإن العدو أصبح هو المحرر لنا والمخلص! وبات الإسلام هو الإرهاب والانحراف!

إن معرفة قدرة العدو، وإمكاناته مهمة شاقة في ظل المعركة الدائرة الآن ضد الأمة، وهذه المعرفة لا يمكن أن نسـتقيها من مصادر المعلومات الموجهـة إلينا، وإنما ببناء مصادر خاصة بنا، تعرف ما تبحـث عنه، حتى ولـو كانت مهماتها إعلامية فقط؛ فالإعلام اليوم له اسـتخدامات عديدة، أقلها إظهار نقاط ضعف الخصوم. ولنا في الرسـول - صلى الله عليه وسـلم - أسوة في هذا المجال؛ لأن

أمة تقاتل عدوها دون معرفة قدراته واستعداداته أمة أقرب إلى الهزيمة منها إلى النصر.

«لقد أبقى النبيُّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ العباسَ في مكة عينًا له على قريش وتحركاتها. كما استطاع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ معرفة عدد جيش قريش في بدر من معرفة عدد ذبائحها اليومية. وقبيل معركة القادسية دخل طليحة الأسدي جيش الفرس، وبات فيه يجوسه ويتوسم ما فيه، ولما عاد طليحة أخبر سعد بن أبي وقاص عن أحوال الفرس وأنهم مئة وعشرون ألفًا، وأتباعهم مثلهم خدام لهم».(٣٤)

وقد «بعث رسول الله إلى هوازن، ومن معها، عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي، وأمره أن يدخل في الناس، فيقيم فيهم حتى يأتيه بخبر منهم، ويعلم مِن علمهم، فانطلق ابن أبي حدرد، فدخل فيهم، فأقام معهم حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا له من حرب رسول الله، وعلم أمر هوازن وما هم عليه، ثم أتى رسول الله فأخبره الخبر».(٣٥)

٣- استعادة السيطرة على مراكز التأثير:

إن الأمة في حالة حرب، ولا يمكن لأمة أن تترك لعدوها العبث بمراكز التأثير فيها، وهدم أصولها من داخلها، والسلوك المنطقي في هذه الحالة هو تطهير مراكز التأثير من العناصر التي تعادي عقيدة الأمة، فلا يتولى المناصب العليا والمؤثرة من يتعاونون مع خصوم الأمة ويوالون أعداءها. وهؤلاء القابعون في المواقع القيادية وقلوبهم كارهة للإسلام ومنقلبة عليه من عوامل التخريب في بنيان الأمة، ومعاول لهدم كل لَبِنَة تبنى لاستعادة الاستقلال. يجب كشف هؤلاء وفضحهم والسعي لإبعادهم عن المناصب، وبذل كل جهد لإغلاق الأبواب أمام وصولهم إلى أي مواقع مؤثرة.

٤- تأسيس مراكز دراسات لتوليد الأفكار:

أصبحت المراكز الفكرية ضرورة في عالم اليوم؛ لمعاونة صنّاع القرار الإسلامي، وبات الاهتمام بالجهود الفكرية أمرًا لا غنى عنه؛ للوقوف على الواقع، وتوفير الرؤى المخلصة؛ لتحقيق أكبر المكاسب للدول وللأمة. وها نحن نرى كيف تحولت المراكز الفكرية في الغرب، وخاصة في الولايات المتحدة، إلى عناصر للتأثير لا يُستهان بها في

اتخـاذ القرارات الداخليـة والخارجية. تعتمد الحكومات الغربية علـى المراكز الفكرية في تحركاتها المختلفة، السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية. ولهذا السبب فـإن المراكز الفكرية في الغرب تحظى بالدعم المالي والسياسـي والإعلامي؛ لما تقوم به من رسم السياسات ومواجهة التحديات.

فـي المقابل فإن المراكز الفكرية في العالم الإسـلامي تُعَدّ علـى أصابع اليد، لا تحظى بـأي اهتمام يليق بها، بل إن بعض هذه المراكز يلقى الدعم من جهات خارجية أثَّرت على استقلاله، وحرَّفت دوره لخدمة جهات أخرى.

٥- ربط متخذي القرار بمراكز فكرية رائدة:

ولكي تحدث نقلة في أداء اتخاذ القرار الإسـلامي لا بد من ربط متخذي القرار والنخب بمراكـز فكرية تعمل لخدمة الأمـة، ولديها من الكفاءات والخبرات ما يوفر رؤًى راشـدةً واعية تُحْدِث نقلة في الأداء. ويجب أن تتوفر لهذه المراكز مضادر تمويل مسـتقلة ومصادر معلومـات كافية؛ لتحقيـق الوعي الكامل بالواقع، وما لم تتسـم هـذه المراكز بالأصالة والانتماء للأمة؛ فإنها لن تفيد في مشـروع النهضة الذي نتحدث عنه، وإنما ستكون مجرد رقم يضاف إلى ما هو موجود من مراكز بلا هوية وبلا هدف، وربما موالية لأعداء الأمة.

٦- التخلص من التبعية الفكرية للغرب:

مـن ضرورات مواجهة التحدي في معركة الأفكار، لا بد من التخلص من التبعية الفكرية للغرب، وقطع الشـريان الذي يغذي العقل المسـلم بالدم الفاسـد. فمن غير المنطقي أن يتطبب المرء بدواء مليء بالسـم الزعاف. إن الحضارة الغربية حققت إنجازات مادية، لكن الغـرب لا يمتلك قيمًا ثقافيـة تصلح لمجتمعاتنا. وهذا الفقر في القيـم والثقافة أصبح أمرًا معروفًا يشـكو منه الغربيون أنفسـهم. وحتى لو كان الغرب يمتلك أي نوع من القيم؛ فإنه يعـادي الأمة، ولا توجد أمة في العالم تترك عقولها مسـتباحة لأعدائهـا يعبثون بها كيف شاءوا.

الهوامش:

١- رواه البخاري في صحيحه (٥٣٥٤). وانظر رسالة «قل هو من عند أنفسكم» للشيخ عبد العزيز الجليل.

٢- لمزيد من التفصيل اقرأ: فقه الواقع للدكتور ناصر العمر.

٣- د. ناصر العمر، فقه الواقع، ص٥.

٤ - حديث صحيح: رواه الإمام أحمد في مسنده (٤/٢٥٩) حديث (١٨٣٠٤) من حديث حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه، وصححه الألباني.

٥ - متفق عليه: رواه البخاري (٨/٢٦٧)، ومسلم (٢٥٨٣).

٦- متفق عليه: رواه البخاري (٨/٢٦٧)، ومسلم (٢٥٨٣).

٧- حديث صحيح: رواه أبو داود (٤/١٨٤) رقم (٤٢٩٩) وصححه الألباني.

٨- حديث حسن: رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٥/٣١٢) حديث (٢٦٤٢١)، وحسنه الألباني في الإرواء.

٩- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، دار الفكر، دمشق، ط.١، عام ٢٠٠٢م، ص ٩٥.

١٠- رواه ابن ماجه في سننه وصححه الألباني.

١١- د. شوقي أبو خليل، عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي، دار الفكر، بيروت، ط.٣، ١٩٨٧، ص٢٠.

١٢- المرجع السابق، ص ٢٥.

١٣- د. شوقي أبو خليل، في التاريخ الإسلامي، دار الفكر، بيروت، ط.١، عام ١٩٩١، ص ٦٠.

١٤- المرجع السابق، ص ٦١.

١٥- السيرة الحلبية ٢ /٦٢٨.

١٦- في التاريخ الإسلامي، مرجع سابق، ص ٨٩.

١٧- المرجع السابق، ص ١٠٧و١٠٨.

١٨- المرجع السابق، ص ١١٩.

١٩- المرجع السابق، ص ١٢٧.

٢٠- المرجع السابق، ص ١٣٦.

٢١- د عبد الشافي محمد عبد اللطيف، بحوث في السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، دار السلام، القاهرة، ط.١، عام ٢٠٠٧، ص ١٥٤.

٢٢- السيرة الحلبية ٣/٧٦.

٢٣- السيرة الحلبية ٣/٢٣٥.

٢٤- بحوث في السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، مرجع سابق، ص ١١٧.

٢٥- المرجع السابق، ص ١١٨.

٢٦- ابن هشام.

٢٧- لواء محمود شيت خطاب، بين العقيدة والقيادة، دار الفكر، بيروت، ط.١ ، عام ٢٠٠٢م، ص٣٧.

٢٨- المرجع السابق، ص٣٧١.

٢٩- مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط.١ ، عام ١٩٨٨، ص١١٧.

٣٠- المرجع السابق، ص٣٦.

٣١- محمود محمد شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، القاهرة، ١٩٩٧م ، سلسلة القراءة للجميع، ص ٧٦

٣٢- المرجع السابق، ص ٨٥.

٣٣- المرجع السابق، ص ١٠٠.

٣٤ - عوامل النصر والهزيمة ، مرجع سابق، ص ١٨.

٣٥ - المرجع السابق، ص ٤٦.

سلسلة رؤى معاصرة

ملخص البحث:

تحتاج الأمة الإسلامية اليوم إلى جهد فكري معاصر يتناسب وحجم التحديات الخارجية والداخلية، وباتت الرؤى الفكرية الرشيدة ضرورةً لإحداث نقلة كبرى لدى صُنّاع القرار الإسلامي؛ بما يساهم في استعادة نهضة الأمة ووضعها على طريق الاستقلال.

يتناول البحث واقع الأمة في مجال الأفكار، والمعركة الدائرة حول السيطرة على العقول، والتي تُعَدّ من أخطر المعارك التي يخوضها المسلمون، بالتوازي مع الغزو العسكري الغربي على العالم الإسلامي. يوضح البحث أهمية الأفكار لصانع القرار المسلم، ويركز على التجارب من تاريخنا حول تأثير الفكر في العمل الإسلامي، وكيف أن الحكم الإسلامي لسلف الأمة كان يهتم بالأفكار في بناء الدولة، وفي ترسيخ العقيدة ومواجهة التحديات.

يشير البحث إلى الأسباب التي أدت إلى ضعف الأمة وانكسارها، وخضوعها للقوى الخارجية بعد أن حَكَمَ المسلمون العالم، وكانوا سادة الأمم.

يؤكد البحث أن صُنّاع القرار الإسلامي يحتاجون إلى قفزة حقيقية وفكرية في ساحة الأفكار، وأن هذه القفزة من الحتميات التي لم يعد من المقبول تأجيلُها، وهي تمثل بداية لاستعادة زمام القيادة ولتحرير أرض الإسلام. ويرى البحث أن الانتصار في حرب الأفكار ليس بالأمر السهل؛ فالعدو يعمل -بجانب السيطرة العسكرية- على التأثير على عقول صُنّاع القرار والنُّخَب، إما بالهيمنة عليها، أو بإقصائها وحجبها عن التأثير.

أهمية البحث أنه يؤكد على أهمية الأفكار في عالم اليوم، وضرورة إنشاء مراكز فكرية إسلامية أصيلة لتقديم دراسات وبحوث فكرية معاصرة؛ لترشيد عملية اتخاذ القرار الإسلامي، ولتحقيق نهضة الأمة، واستعادة استقلالها، والانطلاق نحو الريادة.

يخلُص البحث إلى أن تحرير العقول بداية لا بد منها قبل تحرير الأرض، ولن يتم تحرير الأرض قبل تحرير العقول، وأن الرؤى الفكرية المعاصرة القائمة على الثوابت الإسلامية باتت ضرورة لتحرير العقل المسلم، وتوجيهه لمواكبة ما يجري، وتنمية قدراته لمواجهة التحديات.

للحصول على رؤى معاصرة

تطلب السلسلة وكافة إصدارات المركز العربي للدراسات الإنسانية من المكتبات العامة ودور النشر العربية، فضلاً عن إمكانية الاشتراك للحصول على أعداد السلسلة من خلال الاتصال بإدارة التوزيع والاشتراكات بالمركز.



وكيل التوزيع في منطقة الخليج العربي
sales@albayan-magazine.com
الرياض - هاتف ٤٥٤٦٨٦٨ ٠٠٩٦٦١

ردمك ٩٧٨-٦٠٣-٩٠٠١٢-٠-١